سلسلة رسائل النور القادرية

كتاب آداب المريدين

القسم الخامس من كتاب الغنية لطالبي طريق الحق

للعارف الرباني سلطان الأولياء والعارفين

الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني

جمعها ورتبها وعلق عليها

مخلف العلي القادري الحسني

دار النور القادرية لعلوم التصوف وتراث آل البيت

❁ اسم السلسلة: اصدارات دار النور العلية للعلوم النورانية.
❁ اسم الكتاب: كتاب آداب المريدين.
❁ المؤلف: الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني.
❁ تحقيق وتعليق: الشيخ مخلف العلي القادري.
❁ يطلب من : دار النور القادرية للنشر والتوزيع
❁ عدد الصفحات: ١٤٣
❁ القياس: : ١٧×٢٤
❁ الطبعة: الأولى: ٢٠٢٣

للمتابعة مع المؤلف

❁ البريد الالكتروني: mkhlef@hotmail.com
❁ الموقع على الشبكة: http://www.alkadriaalalia.com
❁ رقم الهاتف: ٠٠٢٠١٢٠٤١٩٣٦٢٣

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

كتاب آداب المريدين

يقول العارف الرباني الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني قدس سره: كتاب آداب المريدين من الفقراء الصادقين سالكي طرق الصوفية الذين صفو عن الاهوية المضلة، وأمسكوا عن الأخلاق الردية فأدخلوا في زمرة الأبدال وأهل الولاية واتصفوا بالعينية، علي وجه الاختصار والاقلال، خشية السآمة والملال.

مقدمة وتعريف بالكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلا عمدٍ رفع السموات، وبسط الأرضين وخلق عليها البرياتٍ، فأنزل إليهم الكتب والصحف فيها البينات، وأرسل إليهم الرسل وأيدهم بالمعجزات، فمن أطاعه فجزاءه الجنة وكان في أعلى المقامات، ومن عصاه فقد خاب وخسر وكان في أسفل الدركات، ثم أصلي وأسلم وأبارك على سيد المخلوقات، ومنتهى المقاصد والمطالب والغايات، وبركة الوجود وفخر الكائنات، سيدنا ومولانا وقرة أعيننا محمد سيد السادات، وعلى آله وصحبه العدول الثقات، الذين اختصهم الله بفضله في محكم التنزيل والآيات، فرضي الله عنهم ورضوا عنه في جميع الأوقات، وبعد: يقول الله تعالى في كتابه الكريم في مدح أولياءه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾[النساء: ٢٩] .

وقد وردت أحاديث ونصوص كثيرة في حق الأولياء والصالحين، وإذا أراد الله تعالى خيراً بعبده ألقى في قلبه محبة الأولياء والصالحين، الذين هم محل نظر الحق عز وجل، فأحمد الله تعالى الذي رزقني محبتهم وأكرمني بصحبتهم، والتعلق بسيرهم ووفقني لاتباع منهجهم.

ألا وإن من أولياء الله تعالى الذين تشرب قلبي بحبهم وعشقهم، بل وتشربت قلوب الملايين من المسلمين من أتباعه ومحبيه في مشارق الأرض ومغاربها بحبه، هو سيدي وقرة عيني وإمامي وشيخي سلطان الأولياء والعارفين

شيخ الإسلام محيي الملة والدين أبا صالح الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، إمام ومؤسس وشيخ الطريقة القادرية رضي الله عنه، وعني به آمين.

فهو عروس الأولياء وأمير الأصفياء وسلطان العلماء، ذاع صيته عند أهل الأرض والسماء، ومهما أردنا التكلم عنه ما أوفيناه حقه، وسيأتي الحديث عنه في البحث الآتي، فقد أفردنا لترجمته بحثاً كاملاً نستفتح فيه هذا الكتاب المبارك، ولقد كان الشيخ على منهج عظيم في التربية والسلوك، ظهر فضله وأشرق نوره في المشارق والمغارب، على مر تسعة قرون مضت، وما زال هذا المنهج العظيم يضيء بنوره للسالكين في طريق رب العالمين، وما أجمل قوله رضي الله عنه حيث يقول:

أَضْحَى الزَّمَــانُ كَحُـلَّــةٍ مَرْقُومَةٍ   تَزْهُو وَنَحْنُ لَهَا الطِّرَازُ الْمُذْهَبُ
أَفَلَتْ شُمُوسُ الأَوَّلِينَ وَشَمْسُنَا   أَبَداً عَلَى فَلَكِ الْعُـلَى لاَ تَـغْـرُبُ

وقد وصفه شيخ الإسلام النووي فقال: ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين وكرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه, كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته, وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر، وانتهى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق، وتتلمذ له خلق لا يحصون عدداً من أرباب المقامات الرفيعة, وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالتبجيل والإعظام, والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه, وأُهْرِع إليه أهل السلوك من كل فجٍ عميق، وكان جميل الصفات شريف الأخلاق. كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البشر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظماً لأهل العلم، مُكرِّماً لأرباب الدين والسنة,

مبغضاً لأهل البدع والأهواء، محباً لمريدي الحق مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عالٍ في علوم المعارف، شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه وتعالى، سخي الكف كريم النفس على أجمل طريقة، وبالجملة لم يكن في زمنه مثله رضي الله عنه [١].

ولقد ترك لنا هذا الإمام العظيم ميراثاً عظيماً، ومنهجاً قويماً، وطريقاً مستقيماً، فمنه ما هو مسطور في الكتب، ما هو مخطوط يتوارثه أتباعه وأبناءه كابراً عن كابرٍ، ومنه مكنون في الصدور، ومنه ما هو محفوظ في القلوب والعقول، وما زالت الأجيال تنتفع به جيلاً بعد جيلٍ إلى يومنا هذا، بل تكاد تكون المدرسة القادرية هي الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي من بين المدارس الصوفية السلوكية التربوية، وذلك من حيث عدد الأتباع الفروع والزوايا والمقرات وانتشارها في اللابد الإسلامية.

وقد ترك الشيخ رضي الله عنه الكثير من المؤلفات والرسائل التي خطها بيده الشريفة، والتي أملاها على تلاميذه، والتي نقلت ودونت من كلامه ومجالسه في الذكر والوعظ والإرشاد، وقد طبع منها الكثير وانتفع به الناس.ومن أهم هذه المؤلفات وأكثرها انتشاراً واشتهاراً هو كتابه الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، وهو كتاب غني عن التعريف، فلا يخلوا بلد إسلامي من وجود هذا الكتاب فيه، وهو كتاب عظيم القدر جليل الشأن، وقد صنفه الشيخ رضي الله عنه متبعاً في ذلك منهج الغزالي في إحياءه العظيم، فجعله الشيخ على خمسة أقسام رئيسية، وكل قسم يحتوي على عدة كتب أو مجالس أو أبواب، وكلٌ منها يحتوي على عدة فصول، وهذه الأقسام هي:

---

١) قلائد الجواهر ص ١٣٧ نقلا عن بستان العارفين .

١) القسم الأول: في الفقه.
٢) القسم الثاني: في العقائد والفرق الإسلامية.
٣) القسم الثالث: في مجالس مواعظ القرآن الكريم والألفاظ النبوية.
٤) القسم الرابع: في فضائل الأعمال.
٥) القسم الخامس: في التصوف.

ولكن رغم عظمة هذا الكتاب، وعلو مكانته عند العلماء والعوام، إلا أنه يثير بعض الشبهات نتيجة بعض ما ورد فيه، وتتلخص إشكالاته في مسألتين هما:

١) مخالفة عقيدة أهل السنة والجماعة في بعض المسائل في قسم العقيدة.
٢) وجود الكثير من الأحاديث الضعيفة والبعض منها محكوم عليه بالوضع.

والحديث عن هذه الإشكالات لا يختصر بصفحة وصفحتين، وإنما يحتاج لشرح كثير، وسنختصر الجواب على المسألتين، فنقول وبالله التوفيق:

المسألة الأولى وهي مخالفة عقيدة أهل السنة والجماعة في قسم العقيدة:

اختلف كثير من أهل العلم حول هذه المسألة، والراجح عند أهل العلم من أهل السنة والجماعة أن ما ورد في كتاب الغنية من نصوص تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة هي نصوص مدسوسة عن الإمام الجيلاني رضي الله عنه، لأن الثابت عند جميع العلماء أن عقيدة الإمام هي عقيدة أهل السنة والجماعة وقد استفاضت كتبه وأقواله في ذلك، ولم يتبنى أحدٌ من ذريته ولا أتباعه هذه العقيدة، أضف إلى ذلك ورود نص عقيدة للشيخ عبد القادر سنورده في هذا الكتاب لاحقاً.

قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله في الفتاوى الحديثية (٢٠٤): وإياك أن تغتر بما وقع في الغنية لإمام العارفين وقطب الإسلام والمسلمين الأستاذ عبد القادر الجيلاني ، فإنه دسه عليه فيها من سينتقم الله منه، وإلا فهو بريء من ذلك وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلعه في الكتاب والسنة وفقه الشافعية والحنابلة حتى كان يفتي على المذهبين، هذا مع ما انضم لذلك أن الله منَّ عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة وما أنبأ عن ما ظهر عليه وتواتر من أحواله.

وقال الإمام الشعراني رحمه الله في كتاب اليواقيت والجواهر (١٢١/١): رأيت في كتاب البهجة المنسوب لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه ما نصه: اعلموا أن عباداتكم لا تدخل الأرض وإنما تصعد إلى السماء قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠] . فربنا سبحانه وتعالى في جهة العلو: الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء بدليل سبع آيات في القرآن العظيم في هذا المعنى لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل ورعونته. انتهى. فلا أدري أذلك الكلام دس علي الشيخ في كتابه أم وقع في ذلك في بدايته ورجع عنه لما دخل في الطريق، فإن من المعلوم عند كل عارف بالله تعالى أنه تعالى لا يتحيز، والشيخ قد شاعت ولايته في أقطار الأرض فيبعد من مثله القول بالجهة قطعاً.

وقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤٥١/٢٠): وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه والله الموعد وبعض ذلك مكذوب عليه.

غير أن المجسمة والسلفية وأدعياء السنة في هـذا الزمـان يثبتـون هـذه العقيدة التي وردت في الغنية للشيخ عبد القادر الجيلاني ويؤكدون على نسبتها إليها بل ويستميتون في ذلك، لأنها توافق عقيدتهم، وبدعهم المشينة، ويطعنون بمن ذهب إلى القول بأنها مدسوسة عليه، ومن العجيب أنهم يقبلون به إماماً لهم في هذه العقيدة، ولا يقبلون بإمامته لهـم بمـا ورد في قسـم التصـوف مـن الكتاب ويدعون أنـه قـد دس على الشـيخ وهـذا تنـاقض عجيـب كعـادتهم أصلحهم الله.

المسألة الثانية وهي ورود بعض الأحاديث الضعيفة والمحكوم بوضعها:

والحقيقة هذه المسألة شائكة ومعقدة وهي يتتبع للمسألة الأولى، وإذا ثبت الدس في كتاب الغنية فهو يحل الإشكال من جذره، فالشيخ رضي الله عنه من أهل العلم بل كان من أكابر العلماء.

فليس من السهل أن نسلم بتعمد الشيخ إيراد هذه الأحاديث في كتبه وهو يعلم بضعفها ووضعها وحكمها، وهو من هو بين العلماء من جهة، وأصعب من ذلك أن نسلم بجهله بحكمها من جهة أخرى، ولكن الذي دس في الكتاب كانت له غايات كثيرة أهمها: فقد الثقة بالكتاب من جهة، وفتح باب الطعن بمؤلفه من جهة أخرى، وهذا الذي حصل من بعض الذين فعلوا ذلك، متذرعين بما ورد في الكتاب من شبهات، كابن كثير والذهبي وابن الجوزي وغيرهم.

وقد قام الكثير من العلماء ببذل جهود عظيمة في تحقيق هذا الكتاب، فحققوا الأحاديث وصوبوا الأقوال، ولكن رغم ذلك لم يظهر للآن تحقيق يخدم هذا الكتاب بالشكل المطلوب، وذلك بسبب صعوبة ذلك، لأنك إن أردت

ذلك فلا بد أن تغير الكثير وتحذف الكثير، وتهذب الكثير، فليس تحقيق الغنية بالعمل السهل، بل هو عمل يحتاج لجهد ووقت ودراية وشجاعة لمواجهة الحقيقة.

والذي أراه لابد من القيام بمشروع عمل كامل وكبير لتحقيق وتدقيق كتاب الغنية، ولكن من الأفضل جعل هذا العمل على أقسام، ليسهل العمل فيها من جهة، ولتكون بها فائدة أكثر وأعم من جهة أخرى.

ومن أجل ذلك قمنا بهذا العمل العظيم، وهو اجتزاء القسم الخامس من كتاب الغنية وهو كتاب آداب المريدين، فهو الأسلم من كل أقسام الكتاب، وبدأنا بالعمل عليه، فحققناه ودققناه وشرحناه وعلقنا عليه بعض التعليقات، وجعلناه في كتاب مستقل لينتفع المسلمون، وأسميناه كتاب آداب المريدين كما سماه شيخنا رضي الله تعالى عنه.

ويجب ان نعلم ان القسم الخامس من الكتاب وهو القسم الخامس يعتبر أهم الأقسام التي في الكتاب، فهو كتاب عظيم حوى في صفحاته أعظم الآداب والتعاليم والإرشادات التي يحتاجها السالك في طريقه إلى الله عز وجل. فقد ذكر فيه الشيخ مقدمة بين فيها مقام المريد والمراد، وبين لنا الفرق بينهما وكيف يتحقق السالك بهذين المقامين، كما عرف لنا التصوف والصوفية، وبين القواعد والأسس لهذا المنهج، ثم تكلم الشيخ عن آداب الشيخ والمريد وآداب الطريقة، وما يتوجب ويندب لكل من دخل في هذا الطريق العظيم، ثم تكلم عن الصحبة وآدابها وشروطها، ثم بين آداب الفقراء السالكين إلى الله، في كل أحوالهم، ثم ختمه ببيان أسس الطريق إلى الله عز وجل، لذلك اخترناه من بين أقسام الكتاب ليكون فاتحة عملنا في كتاب الغنية المبارك.

فهو ليس كتاب تصوف فحسب، بل هو دستور ومنهج قائم على الكتاب والسنة ومنهج العارفين، بين فيه للسالك كل ما يحتاج في علاقته مع ربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته مع غيره.

وإن شاء الله تعالى سنتابع عملنا لتحقيق وتدقيق بقية أقسام الكتاب، بل إننا بدأنا بتوفيق الله عز وجل العمل على ذلك، وقريباً يكون بين أيديكم بحلة جديدة إن شاء الله تعالى.

فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يعيننا على إنجاز العمل بهذا الكتاب على أتم وجه، وان ينفع به المسلمين الذين يطلبون طريق رب العالمين، كما سلكه خواص هذه الأمة من الأولياء والعارفين آمين.

وصلة الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

مخلف العلي القادري الحسيني

ترجمة شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلاني[١]

هو الشيخ الكامل والجهبذ الواصل، خزينة المعارف ومرجع كل قطب وعارف، ذو المقامات العالية والقدم الراسخة والتمكن التام، سلطان الأولياء والعارفين، السيد محيي الدين عبد القادر ابن السيد أبي صالح موسى جنكي دوست ابن السيد عبد الله ابن السيد يحيي الزاهد ابن السيد محمد بن السيد داود ابن السيد موسى ابن السيد عبد الله أبي المكارم ابن الإمام موسى الجون ابن الإمام عبد الله الكامل المحض ابن الإمام الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط عليه السلام ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب زوج السيدة البتول فاطمة الزهراء بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهما السلام[٢]، وأمه هي السيدة الشريفة أم الخير أَمَةُ الجبار فاطمة ابنة السيد عبد الله الصومعي، من نسل الإمام الحسين عليه السلام.

ولادته ونشأته رضي الله عنه:

ولد رضي الله عنه في بلاد جيلان فارس، وفريق آخر يقول في جيلان العراق[٣]، وكانت ولادته في التاسع من شهر ربيع الثاني من سنة أربعمائة وسبعين هجرية على أصح الأقوال وأرجحها.

---

(١) هذه الترجمة مختصرة من كتابنا: (الثمر الداني في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني).

(٢) ذكره السخاوي في نتيجة التحقيق والحافظ الذهبي في تاريخه الكبير وسبط ابن الجوزي في مرآة الزمان والشطنوفي في بهجته والعسقلاني في غبطته والتاذفي في قلائده، وغيرهم.

(٣) ذهب أكثر المؤرخين قديماً وحديثاً أنه ولد في جيلان فارس، وذكر المؤرخ الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني أن ولادته في جيلان العراق، وقد حقق هذه المسألة ودلل عليها في كتابه: (جغرافيا الباز الأشهب)، يمكن الرجوع إليه والاطلاع على هذا التحقيق.

نشأ الشيخ وترعرع في جيلان يتيماً، فقد كان آخر أولاد أبيه، فقد توفي أبوه بعد ولادته بقليل، فعاش في كنف جده لأمه السيد عبد الله الصومعي، وكذلك كان آخر أولاد أمه لأنها حملت به في سن متأخرة في سن اليأس، وقيل أنها حملت به وهي في الستين من عمرها، وذلك معروف عن القرشيات أنهن يحملن في هذه السن كما ذكر ذلك التاذفي في قلائد الجواهر، وكان له أخ واحد فقط اسمه عبد الله[1]. وعاش طفولته في جيلان ولكنه لم يجد ما يروي طموحه في هذه البلدة ولا ما يروي ظمأه من العلوم والمعارف، فأخذت نفسه تحدثه بالسفر إلى بغداد حاضرة الدنيا في ذلك العصر.

وقال الشيخ محمد بن قائد الأواني: «كنت عند سيدنا عبد القادر - رضي الله عنه -، فسأله سائل: علام بنيت أمرك؟ قال: على الصدق، ما كذبت قط، ولا لما كنت في المكتب، ثم قال: كنت صغيرا في بلدنا، فخرجت إلى السواد في يوم عرفة، وتبعت بقرا حراثة، فالتفتت إلى بقرة، وقالت لي: يا عبد القادر، ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فرجعت فزعا إلى دارنا، وصعدت إلى سطح الدار، فرأيت الناس واقفين بعرفات، فجئت إلى أمي، وقلت لها: هبيني لله عز وجل، وأذني لي في المسير إلى بغداد أشتغل بالعلم، وأزور الصالحين. فسألتني عن سبب ذلك؟ فأخبرتها خبري، فبكت وقامت إلى ثمانين دينارا ركنية، ورثها أبي، فتركت لأخي أربعين دينارا، وخاطت في دلقي تحت إبطي أربعين دينارا، وأذنت لي في المسير، وعاهدتني على الصدق في كل أحوالي، وخرجت مودعة لي، وقالت: يا ولدي، اذهب فقد خرجت عنك لله عز وجل، فهذا وجه لا أراه إلى يوم

---

(١) **يقول ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (ج٤/١٩٩):** إن أخاه كان اسمه عبد الله وكان أصغر منه وكان رجلاً صالحاً عاش في جيلان وتوفي فيها وهو شاب والراجح أنه أكبر منه.

القيامة. فسرت مع قافلة صغيرة نطلب بغداد، فلما تجاوزنا همذان، وكنا بأرض برتيك خرج علينا ستون فارسا، فأخذوا القافلة، ولم يتعرض لي أحد، فاجتاز بي أحدهم، وقال: يا فقير، ما معك؟ فقلت: أربعون دينارا، فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطةٌ في دلقي تحت إبطي. فظنني أستهزئ منه، فتركني وانصرف. ومر بي آخر، فقال لي مثل ما قال الأول، وأجبته كجواب الأول. فتركني وانصرف، وتوافيا عند مقدمهم، وأخبراه بما سمعاه مني، فقال: علي به، فأتي بي إليه، وإذا هم على تل يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون دينارا، فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطةٌ في دلقي تحت إبطي. فأمر بدلقي ففتق، فوجد فيه الأربعين دينارا، فقال لي: ما حملك على هذا الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق، فأنا لا أخون عهدها. فبكى، وقال: أنت لم تخن عهد أمك وأنا اليوم كذا وكذا سنة أخون عهد ربي. فتاب على يدي، فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق، وأنت الآن مقدمنا في التوبة. فتابوا كلهم على يدي، وردوا على القافلة ما أخذوا منهم، فهم أول من تاب على يدي» [(١)].

سفره إلى بغداد رضي الله عنه:

دخل الشيخ رضي الله تعالى عنه بغداد في السنة التي مات فيها التميمي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان له من العمر ثماني عشرة سنة. **قال ولده الشيخ عبد الرزاق**: «سألت والدي عن مولده، فقال: لا أعلمه حقيقة، لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشر سنة، والتميمي توفي سنة ثمان وثمانين وأربع مئة»[(٢)].

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨٢).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨٠).

وكانت بغداد في أوج عظمتها واتساعها وغناها، فابتُلِيَ الشيخ في أول حياته وامتحن امتحاناً قاسياً، وتعرض للفتن والفقر والجوع والحرمان، حتى كان يقتات من حواشي الأنهار ويمشي على الشوك حافياً، وينام في البراري والخرب، ولبس المرقع والرخيص من الثياب حتى لقب بالمجنون، ولطالما حدثته نفسه بترك بغداد والرجوع إلى أهله من غير رجعة إليها، ولكن الله ثبته وتابع طريقه الصعب الذي مُلِئَ بالأهوال والصعاب، فكان يقول لنفسه: لابد من إكمال الطريق وبلوغ الهدف الذي جئت من أجله وبعزيمته وهمته استطاع بلوغ غايته وتحقيق مقصده[1].

فسمع الحديث من أبي غالب الباقلاني، وأبي بكر أحمد بن المظفر، وأبي القاسم علي بن بيان الرزاز، وأبي محمد جعفر بن أحمد السراج، وأبي طالب عبد القادر بن محمد، وأبي سعد محمد بن عبد الكريم البغدادي، وأبي البركات هبة الله بن المبارك بن موسى البغدادي السقطي، وأبي العز محمد بن المختار الهاشمي العباسي، وأخذ الفقه عن شيخ الحنابلة القاضي أبي سعيد المبارك المخزومي البغدادي، وأخذ القرآن وعلومه وقراءاته وتفسيره الشيخ علي أبي الوفا بن عقيل الحنبلي البغدادي الظفري، والشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد بن حسن بن حسن العراقي الكلواذاني، وأخذ الأدب واللغة عن الشيخ يحي بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي.

وأما شيوخه في التصوف والسلوك: فقد أخذ بادئ الأمر عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس، وعن الشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد السراج، كما أخذ عن الشيخ يوسف الهمداني، وعن الشيخ أبي الوفاء، وغيرهم من العلماء والأولياء،

(١) طبقات الحنابلة ج٢ ص ٣٠٢.

وأخذ الطريقة والخلافة والإجازة ولبس الخرقة الشريفة عن الشيخ أبي سعيد المبارك المخزومي، وخلفه على مدرسته في باب الأزج بعد موته. كما أخذ عن غيرهم فكان نِعْمَ الآخذ، حتى برع في الأصول والفروع وأنواع الخلاف وعلوم القرآن والبلاغة والأدب، والمذهب الحنبلي ودام على ذلك ثلاثةً وثلاثين عاماً.

تصدره للوعظ والإرشاد:

تصدر الشيخ للوعظ والتدريس في شهر شوال سنة: (٥٢١هـ)، في مدرسة شيخه أبي سعيد، ثم فوضت إليه المدرسة في سنة: (٥٢٨هـ)، فأقام فيها يدرس ويعظ ويفتي الناس إلى أن ضاقت المدرسة بالناس، فظهر له صيت كبير حتى صار أحد أشهر الأولياء الذين وقع أجماع الأمة عليهم، وتتلمذ على يديه عدد كبير من الفقهاء والعلماء والمحدثين وأرباب الأحوال أمثال: شيخ العراق الزاهد الحسن بن مسلم الفارسي العراقي، وأمثال قاضي الديار المصرية عبد الملك بن عيسى الماراني الكردي الشافعي، وأبو عبد الله محمد بن أبي المعالي، والإمام الحافظ عبد الغني المقدسي، والشيخ بن قدامه المقدسي.

يقول الشيخ عبد الوهاب بن سيدنا الشيخ محيي الدين رضي الله عنه:

«كان والدي يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدة كلامه على الناس أربعون سنة، أولها سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، وآخرها سنة إحدى وستين وخمس مئة، ومدة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين وخمس مئة، وآخرها سنة إحدى وستين»[1].

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٩٥).

ويقول موفق الدين ابن قدامة المقدسي: «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة. فإذا بالشيخ عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً واستفتاءً. وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله»[١].

ويقول محمد الحسني الموصلي: «سمعت أبي يقول: كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكان يذكر في مدرسته درسا من التفسير، ودرسا من الحديث، ودرسا من المذهب، ودرسا من الخلاف، وكان يقرأ عليه في طرفي النهار التفسير وعلوم الحديث، والمذهب والخلاف والأصول والنحو، وكان يقرئ القرآن بالقراءات بعد الظهر»[٢].

ويقول الإمام ابن الجوزي البغدادي: «فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت فضاقت مدرسته بالناس فكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت» [٣].

ويقول الشيخ عمر البزاز: «كانت الفتاوى تأتيه من بلاد العراق وغيره، وما رأيناه تبيت عنده فتوى ليطالع عليها أو يفكر فيها، بل يكتب عليها عقيب قراءتها، وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي وأحمد رحمهما الله، وتعرض فتاواه على علماء العراق، فما كان تعجبهم من صوابه أشد من تعجبهم

---

(١) طبقات الحنابلة ج٢ ص ٦٣.

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٩١).

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٨ ص ١٧٣.

من سرعة جوابه فيها، وكان من اشتغل عليه في فن من الفنون الشرعية افتقر إليه فيه، وساد على أقرانه»[1].

ويقول الشيخ عبد الرزاق: «جاءت فتوى من العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراقيين: عراق العجم وعراق العرب، فلم يتضح لأحد منهم جواب شاف، وصورتها: ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد له أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات؟ فأتي بها إلى والدي، فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلى له الطواف، ويطوف أسبوعا وحده، وتنحل يمينه. فما بات المستفتي ببغداد»[2].

وقال عمر الكميماثي: «لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى، ولا ممن يتوب عن قطع الطريق، وقتل النفس، وغير ذلك من الفساد، ولا ممن يرجع عن معتقد سيئ، وأتاه راهب، وأسلم على يديه في المجلس، ثم قال للناس: إني رجل من أهل اليمن، وإن الإسلام وقع في نفسي، وقوي عزمي على أن لا إسلام إلا على يد خير أهل اليمن في ظني، وجلست مفكرا، فغلب علي النوم، فرأيت عيسى بن مريم صلوات الله عليه يقول لي: يا سنان، اذهب إلى بغداد، وأسلم على يد الشيخ عبد القادر، فإنه خير أهل الأرض في هذا الوقت، قال: وأتاه مرة أخرى ثلاثة عشر رجلا من النصارى، وأسلموا على يده في مجلس وعظه، وقالوا: نحن من نصارى المغرب، وأردنا الإسلام، وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٩٢).
(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٩٢).

كلامه ولا نرى شخصه يقول: أيها الركب ذا الفلاح، ائتوا بغداد، وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع في قلوبكم من الإيمان عنده ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس في هذا الوقت»[1].

ويقول الحافظ أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد البندنيجي: «حضرت أنا والشيخ جمال الدين بن الجوزي -رحمه الله- مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه، فقرأ القارئ آية، فذكر الشيخ في تفسيرها وجها، فقلت للشيخ جمال الدين: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم، فذكر الشيخ فيها أحد عشر وجها، وأنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ وهو يقول: نعم، ثم ذكر الشيخ وجها آخر، فقلت له: أتعلم هذا؟ قال: لا، حتى ذكر فيها كمال أربعين وجها، يعزو كل وجه إلى قائله، والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه، واشتد تعجبه من سعة علم سيدنا الشيخ، - رضي الله عنه -. ثم قال: نترك القال ونرجع إلى الحال، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاضطرب الناس اضطرابا شديدا، وخرق الشيخ جمال الدين بن الجوزي ثيابه»[2].

صفاته الخلقية والخلقية:

يقول موفق الدين ابن قدامة: «كان شيخنا محيي الدين عبد القادر رحمه الله، نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر واللحية، طويلها، أسمر، مقرون الحاجبين، حفيا، ذا صوت جهوري، وسمت بهي، وقدر علي، وعلم وفي»[3].

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨٥).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٩١).

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨٠).

ويقول ابن العماد الحنبلي: «كان شيخ الشيوخ الشيخ عبد القادر نحيف الجسم، عريض الصدر، عريض اللّحية، أسمر، مدور الحاجبين، ذا صوت جهوريّ وسمت بهيّ»[1].

ويقول الشيخ علي الهيتي فقال: «إنه يميل إلى الطول، تبدو عليه أمارات النُّبل والاستقامة، وعريض الجبهة، يميل لونه إلى السُّمرة، يصل شعره إلى كتفيه، عريض المنكبين، متناسق الأعضاء، عذب الصوت جهوريّه، ذو نُطقٍ متميِّز، نظراته حادّة ثاقبة؛ تجعل من الصعب على جليسه أنْ يديم النظر إليه، لحيته متوسطة الكثافة، ولكنّها طويلة، رمادية اللون بعد ما تقدّمتْ به السن، دقيقة النهاية، هيئته العامة توحي بالبساطة المحببة كما توحي بالطيبة والنُّبل والجمال أيضاً» [2].

أما صفاته الخُلُقِيَّةِ: فقد كان مع جلالة قدره مع الصغير والكبير، ويجالس الفقراء ويفلي لهم ثيابهم، وكان لا يقوم قط لأحد من العظماء وأعيان الدولة، ولم يلم قط بباب وزير ولا سلطان، وكان إذا جاءه خليفة أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له وقد اتفقت الألسنة وشهادات المعاصرين على حسن خلقه وعلو همته، وتواضعه لله تعالى، وسخائه وإيثاره لغيره.

يقول الشيخ المعمر جرادة: «ما رأت عيناي أحسن خلقا ولا أوسع صدرا، ولا أكرم نفسا، ولا أعطف قلبا، ولا أحفظ عهدا ووداً من سيدنا الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قدره، وعلو منزلته، وسعة علمه يقف

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ج٦/٣٣١).

(٢) الفتح المبين لظهير الدين القادري ص ١٢٩.

مع الصغير، ويوقر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان، ولا ألم بباب وزير قط ولا سلطان»[١].

ويحكي محمد بن الخضر، عن أبيه، قال: «خدمت سيدي الشيخ عبد القادر ثلاث عشرة سنة، فما رأيته فيها يتمخط ولا يتنخع، ولا قعدت عليه ذبابة، ولا قام لأحد من العظماء، ولا ألم بباب ذي سلطان، ولا جلس على بساطه، ولا أكل من طعامه إلا مرة واحدة، وكان يرى الجلوس على بساط الملوك ومن يليهم من العقوبات المعجلة. وكان يأتيه الخليفة أو الوزير أو من له الحرمة الوافية وهو جالس، فيقوم ويدخل داره، فإذا جلس خرج الشيخ - رضي الله عنه - من داره لئلا يقوم لهم، وإنه ليكلمهم الكلام الخشن، ويبالغ لهم في العظة، وهم يقبلون يده، ويجلسون بين يديه متواضعين متصاغرين. وكان إذا كاتب الخليفة يكتب إليه: عبد القادر يأمرك بكذا، وأمره نافذ عليك، وطاعتك واجبة عليه، وهو لك قدوة وعليك حجة. فإذا وقف الخليفة على ورقته قبلها، وقال: صدق الشيخ»[٢].

قال الجبالي: «قال الشيخ عبد القادر: فتشت الأعمال كلَّها، فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أودُّ لو أنَّ الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم أُبَيِّتْها»[٣].

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨١).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٨١).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢٠ ص ٤٤٧.

زوجاته وأولاده رضي الله عنه:

دخل الشيخ بغداد وله من العمر ثماني عشرة سنة، فانشغل بطلب العلم والسلوك، ثم بالمجاهدة والعبادة فترة من الزمن، ولم يتزوج خوفاً من تضييع الوقت؛ أضف إلى ذلك أن ظروفه لم تكن تعينه على الزواج والانفاق، وغالباً أنه لم يتزوج إلا بعد أن جاوز الثلاثين من عمره، وكان رضي الله عنه يقول: «كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إليَّ أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة»[(١)]، وكانت زوجاته كلهن من الصالحات المؤمنات القانتات، وكنَّ عوناً له في حياته.

قال ابن النجار في تاريخه: «سمعت الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: وُلد لوالدي تسعة وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي اناثاً»[(٢)].

وقال الجبائي: «قال سيدنا الشيخ عبد القادر - رضي الله عنه -: كان إذا ولد لي ولد أخذته على يدي، وقلت: هذا ميت فأخرجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثر عند موته شيئا؛ لأني قد أخرجته من قلبي أول ما يولد، قال: فكان يموت من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه فلا يقطع المجلس، ويصعد على الكرسي، ويعظ الناس، والغاسل يغسل الميت، فإذا فرغوا من غسله، جاؤوا به إلى المجلس، فينزل سيدنا الشيخ، ويصلي عليه»[(٣)].

---

(١) عوارف المعارف ط دار الكتب العلمية، ص ١٠١.

(٢) تاريخ الإسلام - ت بشار» (١٢/ ٢٦٠)، سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٥/ ١٨٤).

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/ ٩٨).

أما من عاش من أولاده الذكور رضي الله عنه فهم: عبد الله، وعبد الوهاب، وعبد الرزاق، وعبد العزيز، وعبد الجبار، وإبراهيم، ومحمد، وعبد الرحمن، وعيسى، وموسى، وصالح، وعبد الغني، ويحيى،

وأما البنت فهي: أَمَةُ الجبار فاطمة، رضي الله عنهم أجمعين.

مؤلفات رضي الله عنه:

لقد ألف الشيخ الكثير من الكتب، منها ما وصل إلينا، ومنها ما لم يصل، ومنها المطبوع ومنها المخطوط، كما ينسب له الكثير من الكتب منها ما تصح نسبته له، ومنها ما لا تصح، وسنذكر فيما يأتي أهم وأشهر الكتب التي ثبتت نسبتها للشيخ رضي الله عنه: الغنية لطالبي طريق الحق، والفتح الرباني والفيض الرحماني، وفتوح الغيب، وسر الأسرار، والطريق إلى الله، وجلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر، وتنبيه الغبي إلى رؤية النبي، ومعراج لطيف المعاني، وديوان الشيخ عبد القادر الجيلاني، ورسائل ومكتوبات الشيخ عبد القادر، عدة رسائل في الأوراد وكار والصلوات .

كراماته رضي الله عنه:

لقد أكرم الله الشيخ بكرامات كثيرة، وأكثرها ورد بأسانيد صحيحة متواترة، وقد شهد بذلك الكثير من العلماء والعارفين نذكر منهم:

ويقول موفق الدين ابن قدامة: لم أسمع عن أحد يحكي عنه من الكرامات أكثر ممَّا يحكي عن الشيخ عبد القادر»[1].

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٩٢

ويقول محب الدين النجار في تاريخه: «أحد الأئمة الأعلام صاحب الكرامات الظاهرة» [١].

ويقول سلطان العز بن عبد السلام: «إنه لم تتواتر كرامات أحدٍ من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر فإن كراماته نقلت بالتواتر»[٢].

يقول شيخ الإسلام الإمام النووي: «ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين وكرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه»[٣].

ويقول ابن تيمية: «كرامات الشيخ عبد القادر ثابتة بالتواتر» [٤].

ولو أردنا سرد كرامات الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه لاحتجنا كتاباً كاملاً في ذكرها ولما انتهينا، فهي أكثر من أن نذكرها، وقد امتلأت به كتب السير والتراجم التي تزينت بسيرة الشيخ قدس سره.

وفاته رضي الله عنه:

أما وفاته رضي الله عنه فقد أجمع المؤرخون على أنها كانت في ليلة السبت العاشر من شهر ربيع الثاني سنة: (٥٦١هـ) وذلك على أرجح الأقوال، وقد فرغوا من تجهيزه ليلاً وصلى عليه ولده الشيخ عبد الوهاب الكيلاني في جماعة من حضر من أولاده وأصحابه، ثم دفن في رواق مدرسته في باب الأزج ببغداد، ولكثرة الزحام لم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار وأُهْرِع الناس للصلاة على

---

(٢) تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والألقاب تحت رقم ٣٣٧.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١٣٤، سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٠ ص٤٤٣.

(١) قلائد الجواهر ص ١٣٧ نقلا عن بستان العارفين.

(٢) تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والألقاب تحت رقم ٣٣٧.

قبره وزيارته وكان يوماً مشهوداً من أيام بغداد دار السلام، وكان عمره يوم وفاته واحداً وتسعين سنة، قضاها كلها في سبيل الله تعالى، متعلماً وعالماً ومعلماً، وداعياً إلى الله تعالى هادياً إليه، وقد تخرج على يديه الكثير من العلماء والعارفين الذين أناروا الدنيا في المشارق والمغارب بعلومهم ومعارفهم، ولا يزال نوره سارياً في قلوب العباد إلى هذا اليوم، رضي الله تعالى عنه وأراضاه ونفعنا ببركته، وأفاض علينا من نوره.

مقدمة المؤلف

وهذه مقدمة كتاب الغنية لطالبي طريق الحق الذي هو الأصل المجتزء منه هذا الكتاب المبارك، نوردها هنا ليكون العمل كاملاً، ولعلنا بذلك ننال البركة والخير والمدد من كاتبها سيدي وقرة عيني سلطان الأولياء والعارفين الباز الأشهب سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وعنا ببركته آمين، فنقول وبالله التوفيق:

يقول سلطان الأولياء والعارفين سيدي الباز الأشهب الإمام الرباني والغوث الصمداني شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلاني في مقدمة كتابه الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الجزاء والثواب، وباسمه يشفي كل داء، وبه يكشف كل غمة وبلاء.

إليه ترفع الأيدي بالتضرع والدعاء، في الشدة والرخاء، والشراء والضراء، وهو سامع لجميع الأصوات، بفنون الخطاب على اختلاف اللغات، والمجيب للمضطر الدعاء، فله الحمد على ما أولى وأسدى، وله الشكر على ما أنعم

وأعطى، وأوضح الحجة وهدى، وصلواته على صفيه ورسوله الذي به الضلالة هدى، محمد وآله وأصحابه وإخوانه المرسلين، والملائكة المقربين وسلم تسليماً. أما بعد:

فقد ألح علي بعض أصحابي وشدد في الخطاب، في تصنيف هذا الكتاب، لحسن ظنه في الإصابة والصواب، والله هو العاصم في الأقوال والأفعال والمطلع على الضمائر والنيات، والمنعم المتفضل بتسهيل ما أراد، وإليه عز وجل الالتجاء بتطهير القلوب من الرياء والنفاق، وابدال السيئات بالحسنات، إنه غافر للذنوب والخطيات، وقابل التوبة من العباد.

فلما رأيت صدق رغبته في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات، ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية في مجالس نذكرها، ومعرفة أخلاق الصالحين سنمر بها في أثناء الكتاب، ليكون لنا عوناً له على سلوك طريق الله عز وجل، وامتثال أوامره وانتهاء نواهيه، ووجدت له نية صادقة قد صدرت من فتوح الغيب فيَّ.

فأجبته إلى ذلك فسارعت مشمراً مبتغياً للثواب، راجياً للنجاة في يوم الحساب، إلى جمع هذا الكتاب، بتوفيق رب الأرباب، الملهم للصواب، وقد سميته: **الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل.**

الباب الأول في التصوف والسوك

١) فصل في الإرادة والمريد.

٢) فصل في المتصوف والصوفي.

٣) فصل في الفرق بين المتصوف والصوفي.

٤) فصل في الفرق بين النبوة والولاية.

فصل في الإرادة والمريد والمراد

أما الإرادة: فترك ما عليه العادة، وتحقيقها نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وترك ما سواه؛ فاذا ترك العبد العادة التي هي حظوظ الدنيا والأخرى فتجردت حينئذ إرادته.

فالإرادة مقدمة على كل أمر, ثم يعقبها القصد, ثم الفعل, فهي بدء طريق كل سالك واسم أول منزلة كل قاصد, قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فنهى نبيه صلي الله عليه وسلم عن طردهم وإبعادهم, وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[الكهف: ٢٨].

فأمره صلى الله عليه وسلم بالصبر معهم وملازمتهم وتصبر النفس في صحبتهم، ووصفهم بأنهم يريدون وجهه، ثم قال: :﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب, دون زينة الحياة الدنيا والأخرى.

فأما المريد والمراد: فالمريد: من كانت فيه هذه الجملة و اتصف بهذه الصفة, فهو أبداً مقبلٌ على الله عز وجل وطاعته, مُوَلٍّ عن غيره وإجابته , يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة, و يصم عما سوى ذلك, و يبصر بنور الله عز وجل فلا يرى الا فعله فيه وفي غيره من سائر الخلائق, ويعمى غيره فلا يري فاعلاً على الحقيقة غيره عز وجل, بل يرى آلة وسبباً محركاً

مدبراً مسخراً, قال النبي صلي الله عليه وسلم: حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمي وَيُصم[1]، أي يعميك عن غير محبوبك, ويصمك عنه لاشتغالك بمحبوبك, فما أحب حتى أراد, وما أراد حتى تجردت إرادته, وما تجردت أرادته حتى قذفت في قلبه جمرة الخشية فأحرقت كل ما هنالك.

قال الله عز و جل: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] ، كما قيل: إنها لوعة تُـهَوِّنُ كل روعة، فنومه غلبة وأكله فاقة وكلامه ضرورة, ينصح نفسه أبداً فلا يجيبها إلى محبوبها ولذاتها, وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله, ويصبر عن معاصي الله تعالى، و يرضى بقضاء الله، ويختار أمر الله، ويستحي من نظر الله, ويبذل مجهوده في محاب الله تعالى, ويتعرض أبدا لكل سبب يوصله الى الله عز وجل, ويقنع بالخمول والاختفاء, فلا يختار حمد عباد الله, ويتحبب الي ربه بكثرة النوافل, مخلصاً لله حتى يصل الي الله عز وجل, ويحصل فيه في زمرة أحباب الله تعالى ومراديه.

فحينئذ يسمى مراداً: فتحط عنه أثقال سالكي طريق الله ويغسل بماء رحمة الله ورأفته ولطفه، فيبنى له بيت في جوار الله، وتخلع عليه أنواع الخلع، وهي المعرفة بالله والأنس به والسكون والطمأنينة اليه وينطق بحكمة الله، وأسرار الله، بعد الإذن الصريح بل الخبر من الله عز وجل، ويلقب بألقاب يتميز بها بين أحباب الله تعالى, فيدخل في خواص الله ويسمي بأسماء لا يعلمها إلا الله ويطلع علي أسرار تخصه, فلا يبوح بها عند غير الله عز وجل, فيسمع من الله ويبصر بالله وينطق بالله ويبطش بقوة الله ويسعى في طاعة الله

---

١) رواه أبو داود في سننه: (٥١٣٠-ج٢:ص٧٥٥)، والطبراني في الأوسط: (٤٣٥٩-ج٤:ص٣٣٤)، وافمام احمد في مسنده: (ج٥/ ص ١٩٤).

ويسكن الي الله وينام مع طاعة الله وذكر الله في كلاءة الله، وحرز الله, فيكون من أمناء الله وشهدائه وأوتاد أرضه ومنجى عباده وبلاده وأحبائه وأخلائه.

قال النبي صلي الله عليه و سلم حاكياً عن الله تعالى: لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده, فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل وبي يبطش[1].

فهذا عبد حمل عقله العقل الاكبر وسكنت حركاته الشهوانية لقبضة الحق عز و جل, فصار قلبه خزانة الله عز وجل, فهذا هو مراد الله تعالى أن أردت أن تعرفه يا عبد الله.

وقد قال من تقدم من عباد الله: إن المريد والمراد واحد, إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريداً، اذ لا يكون إلا ما أراد, لأنه إذا أراده الحق بالخصوصية وفقه بالإرادة كما قال الله تعالي: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠].

وقال أخرون: المريد: المبتديء, والمراد المنتهي, المريد :الذي نصب بعين التعب وألقي في مقاساة المشاق، والمراد: الذي لقي الأمر من غير مشقة, المريد: متعب, والمراد: مرفوق به مرفه, فالأغلب في حق القاصدين المبتدئين في سنة الله تعالى ما قد تم وجرى من توفيق الله تعالى للمجاهدات، ثم ايصالهم إليه وحط الاثقال عنهم, والتخفيف عنهم في كثير من النوافل و ترك الشهوات, والاقتصار علي القيام بالفرائض والسنن من جميع العبادات, و حفظ القلوب

١) هذا الحديث ورد في البخاري وأحمد وغيرهما ولكن بروايات مختلفة.

ومحافظة الحدود و المقام, والانقطاع عما سوي الحق عز و جل بالقلوب, فتكون ظواهرهم مع خلق الله تعالى, و بواطنهم مع الله عز وجل, السنتهم بحكم الله, وقلوبهم بعلم الله, فألسنتهم لنصح عباد الله, وأسرارهم لحفظ ودائع الله, فعليهم سلام الله وتحياته وبركاته ورحمته وتحيته مادامت أرضه وسمائه وقام العباد بطاعته وحقه وحفظ حدوده.

وسئل الجنيد رحمه الله: عن المريد والمراد؛ فقال: المريد: تتولاه سياسة العلم, والمراد: تتولاه رعاية الحق, لأن المريد يسير, والمراد يطير, فمتى يلحق السائر الطائر؟ وينكشف ذلك بموسى و نبينا محمد صلي الله عليه و سلم, كان موسي عليه السلام مريداً, ونبينا محمد صلي الله عليه وسلم مراداً, انتهى سير موسى عليه السلام الي جبل طور سيناء, و طيران نبينا صلى الله عليه وسلم الى العرش واللوح المستور. فالمريد طالب والمراد مطلوب, عبادة المريد مجاهدة وعبادة المراد موهبة, المريد موجود والمراد فانٍ, المريد يعمل للعوض والمراد لا يري العمل بل يري التوفيق والمنن, المريد يعمل في سلوك السبيل والمراد قائم على مجمع كل سبيل, المريد ينظر بنور الله والمراد ينظر بالله, المريد قائم بأمر الله والمراد قائم بفعل الله, المريد يخالف هواه والمراد يتبرأ من إرادته و مناه, المريد يتقرب والمراد يقرب به, المريد يحمى والمراد يدلل وينعم ويغذي ويشهي, المريد محفوظ, والمراد يحفظ به؛ المريد في الترقي, والمراد قد أوصل وبلغ الى الرب الذي هو المرقي ونال عنده كل طريف ونفيس ولطيف ونقي, فجاز على كل طائع عابد متقرب بار تقي.

فصل ما المتصوف والصوفي

أما المتصوف: فهو الذي يتكلف أن يكون صوفياً، ويتواصل بجهده إلى أن يكون صوفياً, فإذا تكلف وتقمص بطريق القوم وأخذ به يسمي متصوفاً، كما يقال لمن لبس القميص تقمص, ولمن لبس الدراعة تدرع, ويقال: متقمص ومتدرع, وكذلك يقال لمن دخل في الزهد: متزهد, فاذا انتهي في زهده وبلغ وبغضت الأشياء اليه وفني عنها, فترك كل واحدٍ منهما صاحبه, سمي حينئذ زاهدا, ثم تأتيه الأشياء وهو لا يريدها ولا يبغضها, بل يمتثل أمر الله فيها, وينتظر فعل الله فيها, فيقال لهذا متصوف.

وصوفيٌ: إذا اتصف بهذا المعنى, فهو في الأصل صوفي علي وزن فوعل, مأخوذ من المصافاة, يعني عبداً صافاه الحق عز و جل, و لهذا قيل:

الصوفي: من كان صافياً من آفات النفس, خالياً من مذموماتها, سالكاً لحميد مذاهبه, ملازماً للحقائق غير ساكن بقلبه الي أحد من الخلائق.

و قيل: إن التصوف: الصدق مع الحق, و حسن الخلق مع الخلق.

الفرق بين المتصوف والصوفي

وأما الفرق بين المتصوف والصوفي: فالمتصوف المبتديء, والصوفي المنتهي, المتصوف الشارع في طريق الوصل, والصوفي من قطع الطريق ووصل الي من اليه القطع والوصل.

المتصوف محمل, والصوفي محمول, حمل المتصوف كل ثقيل وتخفيف, فحمل حتي ذابت نفسه, و زال هواه, و تلاشت إرادته وأمانيه فصار صافيا فسمي صوفيا؛ فحمل فصار محمول القدر كرة المشيئة, مربى النفس, منبع العلوم والحكم, بيت الأمن و النور, كهف الأولياء والأبدال وموئلهم ومرجعهم ومتنفسهم ومستراحهم ومسرتهم, اذ هو عين القلادة درة التاج منظر الرب.

والمريد المتصوف: مكابد لنفسه وهواه، وشيطانه وخلق ربه ودنياه وأخراه، متعبد لربه عز وجل بمفارقة الجهات الست والأشياء وترك العمل لها وموافقتها, والقبول منها وتصفية باطنه من الميل اليها بأمر الله عز وجل فيفارق أخراه, وما أعد عز و جل لأوليائه فيها من جنة لرغبته في مولاه , فيخرج من الأكوان فيصفي من الأحداث وبجوهر لرب الأنام, فتنقطع منه العلائق والأسباب والأهل والأولاد, فتنسد عنه الجهات, وتنفتح في وجهه الجهات, وباب الأبواب, وهو الرضا بقضاء رب الأنام, ورب الأرباب, و يفعل فيه فعل العالم بما كان وما هو أت, والخبير بالسرائر والخفيات, وما تتحرك به الجوارح, وما تضمره القلوب والنيات, ثم يفتح تجاه هذا الباب باب يسمي باب القربة الى المليك الديان, ثم يرفع منه الي مجالس الأنس , ثم يجلس علي كرسي

التوحيد, ثم يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية, ويكشف عنه الجلال والعظمة, فاذا وقع بصره على الجلال و العظمة بقي بلا هو, فانيا عن نفسه وصفاته, عن حوله وقوته وحركته وإرادته ومناه و دنياه وأخراه , فيصير كإناء بلور مملوء ماءً صافياً, تتبين فيه الأشباح, فلا يحكم عليه غير القدر, ولا يوجده غير الأمر فهو فان عنه وعن حظه, موجود لمولاه وأمره, لا يطلب خلوة لأن الخلوة للموجود, فهو كالطفل لا يأكل حتى يطعم, ولا يلبس حتي يلبس, فهو مسترسل مفوض ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨], هو كائن بين الخليقة بالجثمان, بائن عنهم بالأفعال والأعمال والسرائر والضمائر والنيات.

فحينئذ يسمي صوفياً: علي معنى أنه يصفى من التكدر بالخليقة والبريات وإن شئت سميته بدلاً من الأبدال, وعيناً من الأعيان, عارفاً بنفسه وربه, الذي هو محيي الأموات, المخرج أولياءه من ظلمات النفوس والطباع والأهوية والضلالات الى ساحة الذكر والمعارف والعلوم والأسرار ونور القربة, ثم الى نوره عز و جل: الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾[النور:٣٥]، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فالله تعالى تولى إخراجهم من الظلمات, وهو عز وجل أطلعهم على ما أضمرت قلوب العباد, وانطوت عليه النيات, إذ جعلهم ربي جواسيس القلوب والأعداء في الخلوات والجلوات, لا شيطان مضل ولا هوي متبع يميل بهم الى الضلالات, قال الله عز و جل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر:٤٢]، و لا نفس أمارة بالسوء، ولا شهوة غالبة متبعة تدعوه الي اللذات المردية في الدركات المخرجة من أهل

السنة والجماعات، قال الله عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فحرسهم ربي, وقمع رعونات نفوسهم وضراوتها بسلطان الجبروت, وبالصبر في محل انقطاعهم واضطرارهم, فأدو الفرائض وحفظوا الحدود والاوامر, والزموا المراتب حتى قوموا وهذبوا ونقوا وادبوا وطهروا وطيبوا ووسعوا وزكوا وشجعوا وعوذوا, فتمت لهم ولاية الله وتوليته: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأعراف:١٩٦]، فنقلوا من مراتبهم الى مالك الملك, فرتب لهم ذلك بين يديه, فصار نجواهم كفاحاً؛ يناجونه بقلوبهم وأسرارهم, فاشتغلوا به عمن سواه, ونهوا عن نفوسهم وعن كل شيء , هو رب كل شيء ومولاه, فصيرهم في قبضته, وقيدهم بعقولهم وجعلهم أمناء، . فهم في قبضته وحصنه وحراسته, يتشممون روح القرب, ويعيشون في فسحة التوحيد والرحمة, فلا يشتغلون بيء إلا بما أذن لهم من الأعمال, فإذا جاء وقت عمل أبدانهم دون قلوبهم, مضوا مع الحرس في تلك الأعمال, كيلا تضرهم شياطينهم ونفوسهم وأهويتهم , فتسلم أعمالهم من خط الشياطين, وهنات النفوس من الرياء والنفاق والعجب وطلب الأعراض والشرك بشيء من الأشياء, والحول والقوة, بل يرون جميع ذلك فضلاً من الله وتوفيقاً من الله خلقاً, ومنهم بتوفيقه كسباً, كي لا يخرجوا بهذه العقيدة من سنن الهدى, ثم يردون بعد أداء تلك الاوامر, وفراغ تلك الاعمال الى مراتبهم التي الزموها, فوقفوا معها وحفظوها بالقلوب والضمائر, وقد ينقلون الى حالة بعد أن جعلوا الأمناء, وخوطب كل واحد منهم بالانفراد في حالته: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[يوسف:٥٤] ، فلا يحتاجون فيها إلى إذن , لانهم صاروا كالمفوض اليهم أمرهم , فهم في قبضته حيثما ذهبوا في شيء من أمورهم يحققه قول النبي صلى الله

عليه وسلم فيما يحكيه عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل أنه قال : ما تقرب إليَّ بمثل أداء فرائضي وإنه ليتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده, فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل وبي يبطش[1]. فهذا الخبر قد ذكرناه في مواضع من هذا الكتاب, لأنه أصل في هذا المقام فيمتلئ قلب هذا العبد بحب ربه عز وجل ونوره وعلمه والمعرفة به, فلا يصح غير ذلك.

ألا ترى الى قوله صلى الله عليه وسلم: من أحب أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم مولى أبي حذيفة رضى الله عنه[2]. فظاهره متحرك متصرف بفعل الله تعالى, وباطنه مملوء بالله عز وجل .

وقد قال موسى عليه السلام: يا رب أين أبغيك؟ : قال: يا موسى في أي بيت يسعني وأي مكان يحملني؟ فإن أردت أن تعلم أين أنا فأني في قلب التارك الوادع العفيف[3]. فالتارك هو الذي يترك بجهد وفيه بقية, ثم من عليه ربه فودعه موتاً عنه ثم عفا, فلا يلتفت الى شيء سوى مولاه.

فما تلك المنة التي منَّ بها ربه عليه؟ وذلك أنه عز وجل أقامه المرتبة على شرطيه اللزوم لها ليقوم بها, فلما وفى له بالشرط ولم يبغِ عملاً وحركة غير ذلك وحفظه، ولم يتجاوز نقله منها الى ملك الجبروت ليقوم فجبر نفسه ثم قمعها بسلطان الجبروت حتى ذلت وخشعت, ثم نقله منها الى الملك السلطان ليهذب, فذابت تلك الغدد التي في نفسه, وهى أصول تلك الشهوات التي قد

---

١) سبق تخريجه

٢) إحياء علوم الدين للغزالي: (٤/ ٣٣١).

٣) رواه الإمام احمد في مسنده، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

صارت غدة ثابته فيها, ثم نقله منها الى ملك الجلال فؤدب, ثم نقله منها الى ملك الجمال فنقى, ثم نقله الى ملك العظمة فطهر, ثم الى ملك البهاء فطيب, ثم الى ملك البهجة فوسع , ثم الى ملك الهيبة فربي, ثم الى ملك الرحمة فرطب وقوى وشجع, ثم إلى ملك الفردية فعود، فاللطف يعذبه، والرأفة تجمعه وتكتنفه, والمحبة تقويه والشوق يدنيه, والمشيئة تؤديه اليه, والجواد العزيز يقلبه فيقربه, ثم يدنيه ثم يمهله, ثم يؤدبه ثم يناجيه, ثم يقصد بمنه ثم يقبض عليه.

فأينما صار، وفي أي مكان خال، وفى كل حال، لربه دان، فهو في قبضته، وأمين من أمنائه على أسراره، وما يؤديه من ربه الى خلقه، فإذا صار الى هذا المحل فقد انقطعت الصفات وانقطع الكلام والعبارات, فهذا هو منتهى العقول والقلوب, وغاية ما تبلغ حالات الاولياء وتؤول.

وما وراء ذلك مختص بالأنبياء والرسل عليهم السلام، لأن نهاية الولي بداية النبي، على الجميع صلوات الله وتحياته ورأفته ورحمته.

الفرق بين النبوة والولاية

والفرق بين النبوة والولاية: أن النبوة كلام ينفصل من الله تعالى، ووحي معه روح من الله يقضى الوحي, ويختمه بالروح منه تعالى قبوله فيقبله, هذا هو الذى يلزم تصديقه, ومن رده فهو كافر, لأنه رادٌ لكلامِ الله عز وجل.

وأما الولاية: فهي لمن تول الله عز وجل حديثه على طريق الإلهام فأوصله اليه فله الحديث, فينفصل ذلك الحديث من الله على لسان الحق معه السكينة, فتلقاه السكينة التي في قلب المجذوب فيقبله ويسكن إليه.

فالكلام للأنبياء والحديث للأولياء، فمن رد الكلام كفر لأنه ردَّ على الله كلامه ووحيه، ومن رد الحديث لم يكفر, بل يخيب ويصير وبالاً عليه، ويبهت قلبه لأنه ردَّ على الحق ما جاءت به محبه الله تعالى، ممن علم الله في نفسه فأودعه الحق, وجعله مؤدياً الى القلب, لان الحديث ما ظهر من علمه الذى برز في وقت المشيئة, فيصير حديثاً في النفس كالسر, إنما يقع ذلك الحديث بمحبه من الله لهذا العبد فيمضي مع الحق الى قلبه فيقبله القلب بالسكينة.

الباب الثاني في آداب الطريقة وواجباتها

١) فصل فيما يجب على المريد المبتدئ في الطريقة.
٢) فصل في آداب المريد مع الشيخ.
٣) فصل آخر في آداب المريد مع الشيخ.
٤) فصل فيما يجب على الشيخ في تأديب المريد

قال الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: ثم نختم الكتاب بذكر باب يشتمل على :المجاهدة والتوكل وحسن الخلق والشكر والصبر والرضا والصدق إذ هذه الأشياء السبعة أساس لهذه الطريقة والكل خير.

فصل فيما يجب على المبتدىء في هذه الطريقة أولاً

فالذي يجب على المبتدىء في هذه الطريقة: الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة سنة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصديقين على ما تقدم ذكره وشرحه في أثناء الكتاب.

فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً، أصلاً وفرعاً، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله عز وجل، ثم الصدق ثم الاجتهاد حتى يجد الإرشاد إليه والدليل، وقائداً يقوده، ثم مؤنساً يؤنسه، ومستراحاً يستريح إليه في حالة إعيائه ونصبه وظلمته، عند ثوران شهواته ولذاته وهنات نفسه، وهواه المضل، وطبعه المجبول على التثبط والتوقف عن السير في الطريق.

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال الحكيم: من طلب وجد وجد.

فبالاعتقاد يحصل له علم الحقيقة، وبالاجتهاد يتفق له سلوك الحقيقة،

ثم يجب عليه أن يخلص مع الله عز وجل عهداً بأن لا يرفع قدم في طريقه إليه، ولا يضعها إلا بالله ما لم يصل إلى الله، فلا ينصرف عن قصده بملامة مليم، لأن الصادق لا يرجع ولا بوجود كرامة، فلا يقف معها ويرضى بها عن الله عز وجل عوضاً إذ هي حجابه عن ربه ما لم يصل إليه عز وجل، فإذا حصل الوصول لا تضره الكرامات؛ إذ هي من باب القدرة وثمراتها وعلاماتها، ووصوله إلى الحق عز وجل من القدرة فلا ينقض الشيء نفسه،

وكيف وقد يصير هو حينئذٍ قدوة في الأرض، وخرق عادة، وكلامه حكمة بالغة من بعد جهل وعجمة وبلادة وقصور، وحركاته وسكناته وتصاريفه عبرة لمن اعتبرها، وأفعال الله تجري فيه وعليه مما يبهر العقول، ثم قد يؤمر حينئذ بطلب الكرامة ويجبر عليها، وتحقق عنده أن دماره وهلاكه في ترك الطلب، ومخالفة هذا الأمر وثباته وبقائه وعبادته وقربته ومرضاة ربه ودنوه منه وزيادة محبة ربه له في طلبها وامتثال أمره فيها.

فكيف تضره الكرامة حينئذ أن يكون ذلك بينه وبين ربه عز وجل، ولا يظهره لأحد من العوام، إلا أن يغلب عليه ظهوره، لأن من شرط الولاية كتمان الكرامات، ومن شروط النبوة والرسالة إظهار المعجزات، ليقع بذلك الفرق بين الولاية والنبوة،

ولا ينبغي له أن يعرج له في أوطان التقصير، ولا يخالط المقصرين والباطلين أبناء قيل وقال، أعداء الأعمال والتكاليف، المدعين للإسلام والإيمان، الذين قال الله عز وجل في حقهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣]، وقال في أختها: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وينبغي له أن لا يضن ببذل الميسور ولا يبخل بالموجود خوفاً أن ينال مثله للإفطار والسحور، ويقطع في نفسه وبقلبه علماً بأن الله لم يخلق ولياً له في سالف الدهور بخيلاً ببذل الميسور،

وينبغي له أن يرضى بالذل الدائم وحرمان النصيب، والجوع الدائم والخمول، وذم الناس له، وتقديم أضرابه وأشكاله وأقرانه عليه في الإكرام والعطاء والتقريب عند الشيوخ ومجالس العلماء، فيجوع هو والجماعة يشبعون، والكل أعزاء ونصيبه الذل.

ومن لم يرضى بهذا ويوطن نفسه عليه فلا يكاد أن يفتح عليه ويجيء من شيء، فالنجاح الكلي والفلاح فيما ذكرنا،

وينبغي له أن لا ينتظر من الله مطلوباً سوى المغفرة لما سلف من الذنوب، والعصمة فيما يأتي، والتوفيق لما يحبه من الساعات، ويوصله إليه من القربات، ثم الرضا عنه في الحركات والسكنات، والتحبب إلى الشيوخ من الأولياء والأبدال، إذ ذاك سبب لدخوله في زمرة الأحباب، ذوي العقول والألباب، الذين عقلوا من رب الأرباب، واطلعوا على العبر والآيات، فصفت حينئذ القلوب والضمائر والنيات، فهذا الذي ذكرته في صفة المريد، وما لم يتجرد قلبه عن جميع الطلبات والمآرب، وينتفي عن غيرها ما ذكرنا من الحوائج والمطالب، لا يكون مريداً على نعت الاستحقاق .

فصل في آداب المريد مع الشيخ

واما آدابه مع الشيخ: فالواجب عليهم ترك مخالفة شيخه في صحبته في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن، فصاحب العصيان بظاهره تارك لأدبه، وصاحب الاعتراض بسره متعرض لعطبه، بل يكون خصما على نفسه لشيخه أبداً يكف نفسه ويزجرها عن مخالفته ظاهرا وباطنا ويكثر قراءة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[محمد:١٩ [.

وإذا ظهر له من الشيخ ما يكره في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفره به عليه، وإن رأى فيه من العيوب ستره عليه، ويعود بالتهمة على نفسه ويتأول للشيخ في الشرع فان لم يجد له عذراً في الشرع استغفر للشيخ ودعا له بالتوفيق والعلم والتيقظ والعصمة والحمية، ولا يعتقد فيه العصمة ولا يخبر أحداً به.

وإذا رجع إليه يوما آخر أو ساعة أخرى يعتقد أن ذلك قد زال وأن الشيخ قد نقل منه إلى ما هو أعلاه رتبة ولم يقر عليه وإنما كان ذلك غفلة وجدت وفصلا بين الحالين لان لكل حالين فصلاً ورجوعا إلى رخص الشرع وإباحته وترك العزيمة والأشد كالدهليز بين الدارين والمنزلة بين المنزلتين انتهاء الحالة الأولى، والقيام على عتبة الحالة الثانية وانتقال من ولاية إلى أخرى وخلع خلعة ولاية، ولبس خلعة ولاية أخرى التي هي الأعلى والأشرف لأنهم كل يوم في مزيد قرب من الله عز وجل.

وإذا غضب الشيخ عليه وعبس في وجهه واظهر منه نوع إعراض عنه لم ينقطع عنه بل يفتش باطنه وما جرى منه من سوء في الأدب في حق الشيخ أو التفريط فيما يعود إلى أمر الله عز وجل من ترك امتثال الأمر وارتكاب النهي فليستغفر ربه عز وجل وليتب إليه ويعزم على ترك المعاودة إليه ثم يعتذر إلى الشيخ ويتذلل له ويتملقه ويتحبب إليه بترك المخالفته له في المستقبل ويداوم على الموافقة له ويواظب عليها فيجعله وسيلة وواسطة بينه وبين ربه عز وجل وطريقا وسببا يتوصل به إليه كمن يريد الدخول على ملك ولا معرفة له به فان لابد من أن يصادق حاجباً من حجابه أو واحداً من حواشيه وخواصه ليبصره بسياسة الملك ودأبه وعادته ويتعلم منه الأدب بين يديه والمخاطبة له وما يصلح له من الهدايا والظرائف مما ليس مثلها في خزانته مما يؤثر الاستكثار منه فليأت البيت من بابه ولا يتسلق من ورائه من غير بابه فيلام ويهان ولا يبلغ الغرض من الملك ولا المقصود منه، ولكل داخل دهشة لابد له من مذكر ومنبه ومن يأخذ بيده فيقعده موضع مثله أو يشير عليه بذلك لئلا تتطرق إليه المهانة ولا يشار إليه بسوء الأدب والحماقة وليتحقق بأن الله عز وجل أجرى العادة بأن يكون في الأرض شيخ ومريد وصاحب ومصحوب وتابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة.

ألا ترى إلى آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى علمه الأسماء كلها , وافتتح الأمر به فجعله كالتلميذ مع الأستاذ والمريد مع الشيخ ,وقال له: يا آدم هذا فرس, هذا بغل, وهذا حمار, حتى علمه قصعة وقصيعة، ثم لما فرغ من تعليمه وتهذيبه جعله أستاذاً معلما شيخا حكيما كساه بأنواع الحلل والحلي وتوجه ومنطقه وأجلسه على كرسي في الجنة وأقام الملائكة حوله صفوفا فقال

يا آدم أنبئهم بأسمائهم بعد أن ظهر عجزهم وعدم علمهم بذلك وقولهم سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، فصارت الملائكة تلاميذ لآدم وآدم شيخهم فأنبأهم بأسماء الأشياء كلها على ما شهد به القرآن فظهر فضله عليه السلام عليهم فصار أفضلهم وأعلمهم وأشرفهم عند الله وعندهم فصار متبوعهم وهم تابعون مقتدون به صلوات الله عليه،

فلما جرى ما جرى من أكل الشجر والخروج من الجنة والانتقال إلى حالة أخرى ومنزل غيره لم يعط علمه ولم يستوطنه بعد ولا جرى ذلك في خلده ولا ظن انه سيسير به إليه، فلما وصل إلى المنزل وجال في الأرض استوحش منها ورأى فيها ما لم يكن رآه من قبل فألقى عليه الجوع والعطش والحرقة والقبض ما لم يعهده من قبل، احتاج إلى معلم ومرشد وأستاذ ودليل ومؤدب ومنبه فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فآنسه وعرفه ما أشكل عليه من أمر المنزلة، فأعطاه الحنطة فأمره فبذرها ثم أمره فحصدها ثم أمره فذراها ثم أمره فطحنها وهيأ له أسبابها ثم أمره بالخبز فخبز ثم أمره بالأكل فأكل ثم لما طلب الطعام الخروج من المعدة تحير ولم يعلم ما يصنع احتاج إلى معلم أيضاً، فعلمه كيف يتغوط وكيف يتطهر وكيف يعبد الله تعالى في المنزل، وعلمه كيف يتوصل إلى بياض جسده، الذي قد حال لونه من البياض والإشراق إلى السواد والظلمة. فأمره بصيام الأيام البيض من الشهر الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فعاد لونه إلى البياض، وعلمه غير ذلك من العلوم والآداب، فصار آدم عليه السلام تلميذاً لجبرئيل، وجبريل عليه السلام استاذه وشيخه، بعد أن كان آدم شيخه، والملائكة أجمع ومتبوعهم، وأعلمه كل ذلك لتغير الحال به والانتقال من منزل إلى آخر، ثم هلم جراً، تعلم شيت ابن

آدم من أبيه آدم ثم أولاده منه وكذلك نوح عليه السلام علم أوراده وإبراهيم عليه السلام علم أولاده، قال الله تعالى:﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢]، أي أمرهم وعلمهم وكذلك موسى وهارون عليهما السلام علما أولادهما وبني إسرائيل وعيسى عليه السلام علم الحواريين، ثم إن جبريل عليه السلام علم نبينا صلى الله علهي وسلم الوضوء والصلاة ووصاه بالسواك وهو قوله صلى الله عليه وسلم: وصاني جبريل بالسواك حتى كاد أن يفرضه وصلى بي جبريل عليه السلام عند البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس...الحديث وقد تقدم ذكره.

ثم تعلمت الصحابة رضي الله عنهم منه صلى الله عليه وسلم ثم التابعون منهم ثم تابعوا التابعين منهم قرناً بعد قرناً وعصراً بعد عصر، فما من نبي إلا وله صاحب يهتدي بهداه ويقفوا أثره ويتبع مذهبه ويهتدي بهديه ثم يخلفه مكانه ويقوم مقامه كموسى ابن عمران وغلامه وابن اخته يوشع ابن نون عليهم السلام والحواريين مع عيسى عليه السلام، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك عثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، وما زالت الأولياء والصديقون والأبدال، كذلك من بين أستاذ وتلميذ كالحسن البصري وتلميذه عتبة الغلام، وسري السقطي وغلامه وابن اخته أبي القاسم الجنيد، وغيرهم مما يطول شرحه.

فالمشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل والدلاء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه، فلا بد لكل مريد لله عز وجل من شيخ على ما بينَّا إلا على الندور والشذوذ فيجوز أن يصطفي الله عبدا من عباده فيتولى تربيته وحراسته عن الشياطين وهنات النفس والهوى كإبراهيم النبي ونبينا محمد صلوات الله

وسلامه عليهما، وأويس القرني من الأولياء رحمه الله، وغيرهم فلا ينكر ، ذلك إلا أنا بينَّا ما هو الأغلب والأكثر والأسلم والأحسن.

فلا ينبغي له أن ينقطع عن الشيخ حتى يستغنى عنه بالوصول إلى ربه فيتولى تبارك وتعالى تربيته وتهذيبه، ويوقفه على معاني أشياء خفيت على الشيخ ويستعمله بما يشاء من الأعمال ويأمره وينهاه ويبسطه ويقبضه ويغنيه ويفقره ويلقنه ويعلمه ويطلعه على أقسامه وما سيؤول أمره إليه فيستغني بربه عن غيره بل لا يتفرغ لغيره ولا يسعه مراعاة الأدب لغيره، ومحافظة خدمته وحرمته وتوقيره فحينئذ يقطع عن الشيخ قطعا وربما حرم عليه المرور إلى الشيخ إلا عن أمر صريح وخبر بيّن إلا أن يتفق مجيء الشيخ إليه أو ملاقاته له في طريق أو جامع قدرا لا قصدا يكون هو فيه كل ذلك حفظا للحال والاستغناء بالرب غيرة على الحال وملازمة لها وخيفة من الذلة والمفارقة له والعقوبة، وذلك لأن الحكم يجمع المريد والشيخ و يسعهما، والأحوال تفرق بينهما، لأنها قدر والقدر غيب فهي الربّ عز وجل والله تعالى كل يوم هو في شأن في تقديم وتأخير وتبديل وتغيير وولاية وعزل واغناء وافقار واعزاز واذلال يسوق المقادير إلى المواقيت لا يدرك ذلك ولا ينضبط لأحد من الخلق ليل مظلم وبحر لجي وبر شاسع ولا يحيط بشيءمن علم ذلك إلا الله عزوجل ومن يطلعه الله تعالى عليه من رسله وأنبيائه وخواص اوليائه فالاثنان من الأولياء لا يتفقان في طريق بعد دخولهما في الحالات التي هي القدر والفعل

فما يصنع المريد بالشيخ وطريقهما مختلفة، فالشيخ يسير به إلى جهة والمريد إلى أخرى فقد خولف بين ظهورهما ووجودهما، فأنى لهما والصحبة والاجتماع والاتباع يبعد ذلك جدا فإن أتفق فهو نادرا شاذ لا التفات إليه ولا

معول عليه إذ الأغلب ما قد انكشف وظهر وبان، فصلوات الله على الشيخ وعلى المريد الصادق الذي بلغ به الى حالة استغنى فيها بربه عن الشيخ.

ومن آداب المريد أن لا يتكلم بين يدي شيخه إلاّ في حالة الضرورة و أن لا يظهر شيئاً من مناقب نفسه بين يديه ولا ينبغي له يبسط سجادته بين يدي الشيخ إلا في وقت أداء الصلاة، فإذا فرغ من صلاته طوى السجادة في الحال، ويكون متهيأ لخدمة شيخه ومن هو قاعد على بساطه, مبسوطاً مستوطناً مستريحاً ,لا كلفة عليه لغيره، وهذه حالة الشيوخ لا حالة المريدين، ويجتهد في اجتناب بسط سجادته وفوق سجادته من هوفوقه في الرتبة , وإدناء سجادته من سجادته إلا بأمره , فإن ذلك عندهم سوء أدب

وينبغي للمريد إذا جرت مسألة بين يدي الشيخ أن يسكت وان كان عنده فضل واشباع جواب فيها، بل يغتنم ما يفتح الله على لسان شيخه فيقبله ويعمل به، وان رأى في جوابه نقصانا و قصوراً فلا يردّ عليه، بل يشكر الله على ما خصه من فضل وعلم ونور ويخفي جميع ذلك في نفسه ولا يكثر حديثه ولا يقول أخطأ الشيخ في المسألة ولا يناقض كلامه إلا أن يغلب عليه ذلك فيبتدر منه الكلمة فليتداركها بالسكوت والتوبة والعزم على ترك المعاودة على ما قدمنا ذكره في أثناء الكتاب من فعله في توبته عن معاصي الله عز وجل، فالخير كله في حق المريد في سكوته فيما هذا سبيله .وينبغي للمريد أن لا يتحرك في حال السماع بين يدي الشيخ إلا بإشارة منه عليه ، ولا يرى من نفسه البتة حالاَ إلا أن ترد غلبة تأخذه عن التمييز والاختيار , فإذا سكنت فورته فليعد إلى حال سكونه وأدبه ووقاره , وكتمان ما أولاه الله عز وجل من سره وقد ذكرنا هذا وإن كنا لا نرى بالسماع والقول والقصب والرقص وقد قدمنا كراهته

فيما تقدم إلا أن قد ذكرنا ذلك على ما قد لهج به أهل زماننا في أربطتهم ومجامعهم ولا ينكر أن يكون فيمن يفعل ذلك، فيكون معنى ما قد سمع مهيجاً لنائرة صدقه ومثيراً لها فيشتغل بنائرته ويغيب فيها فتتحرك اعضاءه وجوارحه بين القوم وهو في معزل عما القوم فيه، من ذلة الطباع والاهوية، وتذكار كل واحد قرب من معشوقه ممن قد مات وطال به عهده ومن هو حي غائب عنه فاشتد شوقه. والمريد الصادق نائرته غير خامدة وشعلته غير هامدة ومحبوبه غير غائب وأنيسه غير مستوحش، فهو أبداً في زيادة دنو وقرب ولذة ونعيم، فلا يغيره ولا يهيجه عن حالته غير كلام مراده وحديثه الذي هو ربه. ففي ذلك عنده مندوحة من الأشعار والقيانة والأصوات وصراخ المدعين، شركاء الشياطين، ركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع، اتباع كل ناعق وزاعق.

وينبغي للمريد أن لا يعارض أحداً في حال سماعه ولا يزاحم أحداً في وقته في التقاضي على الذي ينشد الزهديات والمرققات المشوقات إلى الجنان والحور ورؤية الحق في الآخرة والمزهدات في الدنيا ولذاتها وشهواتها وأبنائها ونسوانها والمشجعات على الصبر على آفاتها ومحنها وبلائها، وإدبارها عن أبناء الآخرة وإقبالها على أبنائها وغير ذلك، فليكل جميع ذلك إلى الشيخ الحاضر، فإن القوم في ولاية الشيخ، اللّٰهُمَّ إلا أن يكون المستمع حينئذٍ من المحققين الصادقين فيحفظ الأدب في الظاهر ويسكن عن تكلفه في الباطن فلا يشك أن الله عز وجل تعالى يقيض من يتقاضى عنه، أو يلهم القائل بذلك التكرار والترداد ليقضي الصادق المستمع نهمته ووطره من ذلك.

فصل آخر في آداب المريد مع الشيخ

وينبغي له إذا أراد أن يتأدب بشيخ أن يكون له إيمان وتصديق واعتقاد أن ليس أحد في تلك الديار أولى منه، حتى ينتفع به فيما هو مرامه، وأن يقبله المريد لله تعالى كما يقبله الشيخ لله، وأن يحفظ المريد سره في خدمته مع الله تعالى، فإن صدقه فيما بينه وبين الله عز وجل في عقد إرادته بحفظه حتى لا يجري على لسان شيخه إلا ما هو الأولى بشأنه ويحذر مخالفته جداً لن مخالفة الشيوخ سم قاتل فيها مضرة عامة، فلا يخالفه بتصريح ولا بتأويل ويجتهد أن يكتم على شيخه شيئاً من أحواله وأسراره ولا يطلع أحداً سواه على ما يأمره به.

ولا ينبغي له أن يحتج إلى طلب الرخصة ويرجع إلى شيء تركه لله عز وجل فإنه من الكبائر وفسخ الإرادة عند أهل الطريقة.

وقد جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ[1].

وعليه الانقياد لألتزام ما يأمره به شيخه من التأديب على مقتضى سوء أدبه، فإن وقع منه تقصير في القيام بما أشار إليه شيخه، فالواجب عليه تعريف ذلك لشيخه به ليرى فيه رأيه ويدعو له بالتوفيق والتيسير والفلاح.

---

١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فصل في الذي يجب على الشيخ في تأديب المريد

وأما الذي يجب على الشيخ في تأديب المريد أن يقبله لله عز وجل لا لنفسه، فيعاشره بحكم النصيحة، ويلاحظه بعين الشفقة، ويدانيه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة فيربيه تربية الوالد لولده والوالد الشفيق الحكيم اللبيب لولده وغلامه فيأخذه بالأسهل ولا يحمله ما لا طاقة له به.

ثم بالأشد فيأمره أولا بترك متابعة الطبع في جميع أموره واتباع رخص الشرع حتى يخرج وبذلك عن قيد الطبع وحكمه ويحصل في قيد الشرع ورقه، ثم ينقله من الرخص إلى العزيمة شيئا بعد شيء فيمحو خصلة من الرخص فيثبت مكانها خصلة من العزيمة.

فان وجد في ابتداء أمره فيه صدق المجاهد والعزيمة وتفرس فيه ذلك بنور الله عز وجل ومكاشفته، وعلم من قبل الله عز وجل على ما قد مضت سنة الله في عباده المؤمنين من الأولياء والأحباب الأمناء العلماء به فحينئذ لا يسامحه في شيء من ذلك، بل يأخذ بالأشد من الرياضات التي يعلم انه لا تتقاصر قوة إرادته عنها إذا ثبت عنده أنه مخلوق لذلك وجدير به، وهو من شأنه ذلك فلا يخوفه من التهوين عليه.

ولا ينبغي له أن يرتفق من المريد بحال لا بالانتفاع بماله ولا بخدمته ولا يؤمل من الله في تأديبه عوضاً ولا شيئاً، بل يؤدبه ويربيه موافقة لله عز وجل وأداء لأمره وقبول هديته وطرفته فإن المريد الذي جاء من غير تخير من الشيخ ولا استجلاب بل قدر محتوم بإرشاد الله تعالى له وهدايته وإنقاذه إليه فانه هدية من الله ، فعليه قبوله والإحسان إليه بحسن تأديبه وتربيته فلا يرتفق به

ولا بماله إلا بأمر من الله تعالى وخير في استعماله وقبوله ما يأتي به من ماله الذي قد جعل الله تعالى صلاح المريد ونجاته به وقسم للشيخ فيه فحينئذ لا سبيل إلى الإعراض عنه وردَه.

ويحذر جدا أن يختار من المريدين من يقع له بل ينتظر في ذلك فعل الله عز وجل وقدره فمن جاء لله تعالى به من غير تكلف منه وتخيير قبله ورباه، فحينئذ يوفق في تربيته ويسرع فلاح المريد ونجحه فليحذر أن يكون هو فيه، فيعدم التوفيق والحفظ في حق المريد وعليه أن يربيه بهمته ويتوب عنه في سره إذا وجد منه خلل وفترة.

وعليه أن يحفظ سر المريد فلا يطلع غيره على ما يحصل له من الاشراف من أحواله عليه اما بطريق علم لدنى من مواهب الله عز وجل أو بإفشاء المريد له أو استكتابه إياه فلا ينبغي له أن يغشه لأنه أمانة عنده

وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار، فينبغي له أن يكون مستراحاً للمريدين وخزانتهم، وحرزا لأسرارهم وكهفا وملجأ لهم ومشجعا ومقويا ومعينا لهم ومثبتاً لهم في الطريق، ولا ينفرهم عن الطريق ومصاحبته والقصد إلى الله عز وجل.

وإذا رأى شيئا مما يكره في الشرع من المريد وعظه في السر وأدبه ونهاه عن المعاودة إلى ذلك إن كان ذلك في الأصول والفروع أو أدعى حالة ليست له أو أعجب بعمله ورؤيته فيصونه عن محل الإعجاب ويصغر في عينيه أحواله وأعماله لئلا يهلك فان العجب يسقط العبد من عين الله تعالى.

وإن أراد أن يعم الجماعة بالنصح فليجمعهم وليتكلم عليهم فيقول: بلغني أن فيكم من يدعي كذا أو يقول كذا أو يرتكب كذا فيذكر ما يتعلق بذلك من المفاسد والمصالح ويذكرهم ويحذرهم ولا يعين أحداً منهم بذلك لما في ذلك من التنفير، فان أخشن الخلق والقول معهم وأفشى أسرارهم واغتابهم وثلبهم وذكر مساويهم نفرت قلوبهم عن قصده ومصاحبته وصار ذلك تهمة عندهم في أهل الطريق وفيما قد غرز في قلوبهم من حب أولياء الله تعالى فليحذر ذلك جداً فان غلب هذا عليه ولا يمكنه تداركه فليعزل نفسه عن هذه المنصبة والولاية ولينفرد عن المريدين وليشتغل لمجاهدة نفسه ورياضتها وطلب شيخ يؤدبه ويقومه ويهذبه فلا يصلح أن يكون شيخاً مع هذه الدواهي، فلا يقطع على المريدين طريقهم إلى الله عز وجل.

الباب الثالث في آداب الصحبة

٥) فصل في الصحبة مع الإخوان.

٦) فصل في الصحبة مع الأجانب.

٧) فصل في الصحبة مع الأغنياء.

٨) فصل في الصحبة مع الفقراء.

٩) فصل في آداب الصحبة مع الفقراء.

قال الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: باب في صحبة الإخوان والصحبة مع الاجانب، وكيف الصحبة مع الأغنياء والفقراء.

فصل في الصحبة مع الإخوان

أما الصحبة مع الإخوان: فبالإيثار والفتوة والصفح عنهم والقيام معهم بشرط الخدمة، لا يرى لنفسه على أحدٍ حقاً، ولا يطالب أحداً بحق، ويرى لكل أحدٍ عليه حقاً، ولا يقصر في القيام بحقهم.

ومن الصحبة معهم: إظهار الموافقة لهم في جميع ما يقولون أو يفعلون، ويكون أبداً معهم على نفسه ويتأول لهم ويعتذر عنهم، ويترك مخالفتهم ومنافرتهم ومجادلتهم ومماراتهم ومشاددتهم، ويتعامى عن عيوبهم، فإن خالفه أحدٌ منهم في شيءٍ سلَّم له ما يقول في الظاهر، وإن كان الامر عنده بخلاف ما يقوله .

وينبغي: أن يحفظ أبداً قلوب الاخوان، ويجتنب فعل ما يكرهونه وإن علم فيه صلاحهم، فلا ينطوي لأحد منهم على حقدٍ، وإن خامر قلب واحدٍ منهم كراهة له تخلق معه بشيءٍ حتى يزول ذلك، فإن لم يزل زاد في الإحسان والتخلق حتى يزول، وإن وجد هو في قلبه من أحدٍ منهم استيحاشا وأذية بغيبة أو غيرها فلا يظهر ذلك من نفسه ويرى من نفسه خلاف ذلك له.

فصل في الصحبة مع الأجانب

وأما الصحبة مع الأجانب: فيحفظ السِّرَّ عنهم، وينظر إليهم بعين الشفقة والرحمة، وأن يُسْلِمَ أحوالهم إليهم، ويستر عليهم أحكام الطريقة، ويصبر على سوء أخلاقهم، وترك معاشرتهم ما أمكنه، وألا يعتقد لنفسه عليهم فضيلة.

ويقول: إنهم من أهل السلامة فيتجاوز الله عنهم.

ويقول لنفسه: أنت من أهل المضايقة، فتطالبين بالنقير والقطمير والحقير والكبير، وتحاسبين على الكبير والصغير، وأنَّ الله تعالى يتجاوز للجاهل ما لا يتجاوز بمثله من العالم، والعوام لا يبالى بهم والخواص على الخطر.

فصل في الصحبة مع الأغنياء

وأما الصحبة مع الأغنياء: فبالتعزز عليهم، وترك الطمع فيهم، وقطع الأمل مما في أيديهم، وإخراج جميعهم من قلبك، وحفظ دينك من التضعضع لهم لنوالهم، كما جاء في الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: من تضعضع لغني لأجل ما في يديه ذهب ثلثا دينه[1]، فنعوذ بالله من فعل ينقص به الدين، وصحبة أقوام ينثلم بهم الدين، وتنقطع عراه، ويطفئ نور الإيمان شعاع أموالهم وبريق دنياهم كما جاء في الحديث.

غير أنك إذا ابتليت بصحبتهم في سيرٍ أو سفرٍ أو مسجدٍ أو رباطٍ أو مجمعٍ: فحسن الخلق أولى ما يستعمل، وهو حكمٌ عامٌ شاملٌ في صحبة

---

١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة: رقم الحديث: (١٠٥٥): حديث: مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لأَجْلِ غِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ. حديث مرفوع: البيهقي في الشعب من حديث الحسن بن بشر حدثت عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود من قوله : من خضع لغني ووضع له نفسه إعظاما له وطمعا في فيما قبله ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه ، ومن حديث شعر ابن عطية عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعا : من أصبح محزونا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه ، ومن دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ، ومن قرأ القرآن فدخل النار فهو ممن اتخذ آيات اللهَّ هزوا ، وللطبراني في الصغير من حديث وهب ابن راشد البصري عن ثابت البناني عن أنس مرفوعا : من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو اللهَّ تعالى ، ومن تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط اللهَّ عز وجل ، ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده اللهَّ ، وقال : لم يروه عن ثابت إلا وهب، وكان من الصالحين ، وفي لفظ : من تضعضع لغني لينال فضل ما عنده أحبط اللهَّ تعالى عمله ، وهما واهيان جداً ، حتى أن ابن الجوزي ذكرهما في الموضوعات ، وكذا من الواهي في ذلك ما أورده الديلمي من حديث أبي هريرة ، وهو في ترجمة وهب بن منبه من الحلية لأبي نُعيم مرفوعا ، بلفظ : من تضعضع لذي سلطان إرادة دنياه أعرض اللهَّ عنه ، وللديلمي عن أبي هريرة أيضا رفعه : من تضرع لصاحب دنيا ودع بذلك نصف دينه ، ومن حديث أبي ذر مرفوعا : لعن اللهَّ فقيرا تواضع لغني من أجل ماله ، من فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه ، نعم عند البيهقي من حديث وهب بن منبه قال : قرأت في التوراة ، وذكر نحوه . (تنبيه) إنما لم يحكم على الثلث الثالث وهو القلب ، لخفائه إذ الإيمان : قول باللسان ، وعمل بالأركان ، وتصديق بالقلب ، نسأل اللهَّ التوفيق.

الأغنياء والفقراء فلا ينبغي لك أن تعتقد لنفسك فضيلة عليهم، بل تعتقد أنَّ جميع الخلق خير منك لتتخلص من الكِبْرِ، ولا تطلب لنفسك فضيلة الفقر ولا تعتقد لها خطراً في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ترى لها قدراً ولا وزناً.

كما قيل: من جعل لنفسه قدراً فلا قدر له ومن جعل له وزناً فلا وزن له.

فأدب الغني بالإحسان إلى الفقير، وهو إخراج المال من كيسه إليه، ويكون فراغاً من ماله مستخلفاً فيه غير متملكٍ له، وأدبُ الفقيرِ إخراجُ الغني من قلبه، ويكونُ قلبهُ فارغاً من الغني وماله، بل من الدنيا والآخرة أجمع.

ولا يجعل لشيءٍ من الأشياء في قلبه موطناً ومحلاً ومدخلاً: بل يتصفى من ذلك كله ويخلو منه، ثم يترقب امتلائه بربه عز وجل، فلا يكون لغيره وجود ولا له حولٌ ولا قوةٌ، فيأتيه عند ذلك فضلُ الله عز وجل فحينئذٍ يحصل الغنى به عزَّ وجلَّ من غير تعبٍ ولا همٍ.

فصل في الصحبة مع الفقراء

وأَما الصحبة مع الفقراء: فبإيثارهم وتقديمهم على نفسك في المأكول والمشروب والملبوس والملذوذ والمجالس وكل شيء نفيسٍ، وترى نفسك دونهم، ولا ترى لها عليهم فضلاً في شيءٍ من الأشياء البتة.

عن أبي سعيد بن أحمد بن عيسى قال: صحبتُ الفقراء ثلاثين سنة ولم يجر بيني وبينهم كلام قط تأذوا به، ولا جرى بيني وبينهم منافرة استوحشوا منها، قيل له: كيف ذلك؟ قال: لأني كنت معهم على نفسي أبداً، واذا دخلت عليهم أدخلت عليهم سروراً ورفقاً، واستعملت معهم خُلقاً هديةً وأدباً وسبباً من الاسباب، فلا ترى بذلك لك عليهم فضلاً، بل تتقلد منهم منَّةً في قبولهم ذلك منك.

واحذر أن تمنَّ عليهم بذلك أو تراه منك، بل اشكر الله عز وجل على ما أولاك من توفيقه على تيسير ذلك، جعله لك أهلاً لخدمة أهله وخاصته وأحبابه، فإن الفقراء الصالحين هم أهل الله وخاصته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته[1]، فأهل القرآن من يعمل بالقرآن، واما من يقرأ بلا عمل فليس من أهله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ[2]، فالمنة لمن يقبل منك العطية لا لك.

---

١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أنس ابن مالك.

٢) رواه الترمذي والطبراني وأبو نعيم عن أنس والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

فصل في آداب الصحبة مع الفقراء

ومن آداب الصحبة مع الفقراء: ألا تحوجهم إلى مسألتك، وإن اتفق فاستقرض الفقير منك شيئاً فتقرضه في الظاهر، ثم تبرئه منه في الباطن، وتخبره عن قريب بذلك، ولا تبدأه بالعطاء على وجه الصلة لئلا يتحشم بحمل المنّة منك بذلك.

ومن الأدب معهم: مراعاة قلبه بتعجيل مراده دون تنغيص الوقت عليه بطول الانتظار، لأن الفقير ابن وقته كما ورد: ابن آدم ابن يومه وليس له وقت لانتظار المستقبل.

ومن الادب معهم: أنك اذا علمت أنه ذو عيال وصبيان فلا تفرده بالإرفاق فحسب، بل تتخلق معه بقدر ما يتسع له ولن يشتغل به قلبه.

ومن الادب معهم: الصبر على ما يذكر الفقير من حاله، وأن تتلقاه في حال ما يخاطبك بوجه طلق مستبشر، ولا تلقاه بالعبوس ولا بالنظر الشزر ولا بالكلام النزر، وإذا طالبك بما لا يحضر في الوقت فاصرفه بالوجه الجميل إلى عند مساعدة الإمكان، ولا توحشه بيأس الرد على الجزم لئلا يعود بحشمة الإخفاق وعدم الإصابة بحاجته عندك، والندم على إفشاء سره اليك حسيرا، وربما يغلب عليه طبعه، وتستولى عليه نفسه، فيظهر عليه الجهل بحاله والسخط عليك والاعتراض على الرب عز وجل فيما قسم له من الفاقة الى الخلق والتبذل عنهم، فيعمى قلبه وينطفئ نور إيمانه، فكنت أنت مؤاخذا بذلك كله، إذا كنت سببا لثوران ذلك من قلبه، بتركك الادب فى رده، وربما حجب أيضآ عن الصواب، والمعارف والعلوم والمصالح المدفونة فى سؤاله للخلق، التى لو صبر وآحسن الادب ظهرت وارتحل السؤال للخلق وحصل غنى

اليد والقلب والبيت، وجاءته عساكر فضل الله وآلائه ونعمائه ودللته يد الرأفة والرحمة والراحة والرعاية، وتحقق فيه قوله عز وجل: وهو يتولى الصالحين؛ [الاعراف.١٩٦] وجعل مصانا مغارا عليه، وله غنى عن الأشياء بخالقها وتأتيه الاشياء وهو لا يأتيها، يقصده القاصدون فينالون من انواره وسره، ويطيبون بطيبه وهو لا يشعر بهم فى غيب عنهم، مشغول بمولاه وجاذبه الذى جذبه إليه، وانقذه من ظلمات مخالطة الخلق، ومرافقة النفس ومتابعة الهوى، والتقيد بإرادة الاشياء دنيا واخرى (إنّ اصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون؛ [يس:٥٥] أًهل الجنة لما باعوا فى الدنيا أنفسهم وأموالهم لربهم عز وجل بالجنة، كما قال جل وعلا: (إنّ الله اشترى من المومنين انفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة) (التوبة ١١١) وصبروا على الإفلاس فى الدنيا وردوا التصرف فى الانفس والاموال والاولاد إلى ربهم عز رجل، وسلموا الكل إليه جل جلاله سوى الاوامر رالنواهى، وامتثلوا الاوامر وانتهوا عن النواهى وسلموا فى المقدور، وتحرزوا من الخليقة، وتجوهروا عن الإرادات والامانى، والهمم فى الجملة أدخلهم الجنة فشغلهم بما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال جل وعلا: (إنّ أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون)؛ فهكذا الفقير اذا فعل ذلك فى الدنيا وتحقق بظاهر القرآن حصول الجنة له، باع حينئذ الجنة بربه عز وجل، وطلب الجار قبل الدار كما قالت رابعة رحمها الله: الجار قبل الدار؛ وكما قال عزّ وجلّ :(ويريدون وجهه) (الانعام ٥٢ والكهف ٢٨) وكما قال الله عزّ وجل فى بعض كتبه السالفة: أًود الاوداء إلى عبد عبدنى بغير نوال ليعطي الربوبية حقها، وقول على رضى الله عنه: لو لم يخلق الله الجنة والنار ما كان أهلاً أًن يعبد، قال عزّ وجل :" وهواهل التقوى وأًهل المفغرة"

(المدثر ٥٦) فإذا اتصف الفقير بهذه الصفة ، وتحقق افلاسه عن سوى مولاه، وتنظف قلبه عن التعلق بالاشياء وفنى عنها، وصار مريدا حقا، وغاب عما سوى ربه عز وجل، كان حقيقا على كرم الله أن يتولاه ويدلـله وينعمه فى الدنيا الى حين اللقاء ، تم يزيده على ذلك، ويجدد عليه الخلع والانوار والنعيم والحياة الطيبة، والقرب على ما أعد وأخبر لاوليائه وأحبابه، بقوله عز وجل: (فلاتعلم نفس ما أًخفى لهم من قرة أًعين جزاء بما كانوايعملون) (السجدة:١١)، وقول النبى صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: آعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، اقرؤا إن شئتم (فلاتعلم نفس ما أًخفى لهم من قرة أًعين)

فإن رددت الفقير اليد الغنى القلب المتمثل لأمر مولاه فى إخباره لك عن حاله لاجل عياله أو نفسه طائعا لربه عز وجل فى ذلك خائفا له، ان لو ترك سؤالك إذ كلفه الله ذلك وابتلاه به، قال الله عز وجل: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) (الفرقان: ٢٠) وهى حالة له لا تدوم، بل تنقضي عن قريب وينقل إلى ما قسم له من الغنى والعز الدائم بقرب مولاه وإعطائه، عاقبك الله يا غنى اليد فقير القلب، الجاهل بنفسه وبربه، ومنشئه ومنتهاه. ، بأن يسلب الغنى عن يدك، فتصير فقيد اليد كما كنت فقير القلب، فتكون أبدا فقيرا إلى الأشياء ، فلا تشبع منها حريصا عليها، طالبا لها معذبا في إرادتها وتحصيلها، وهى غير مقسومة لك، كما قيل: إن من اشد العقوبات طلب ما لا يقسم إلا أًن يتغمدك الله برحمته، فينبهك لذنبك فتستغفره ، وتوب إليه من ذلك وتعترف بتفريطك ويتوب عليك ويغفر لك، فذلك إليه وهر ارحم الراحمين غفور رحيم.

الباب الرابع في آداب الفقراء (المريدين)

١) فصل في آداب الفقير في فقره.

٢) فصل في آداب الفقير في سؤاله .

٣) فصل في آداب الفقير في العشرة.

٤) فصل في آداب الفقراء عند الأكل.

٥) فصل في آداب الفقراء فيما بينهم.

٦) فصل في آداب الفقراء مع الأهل والولد.

٧) فصل ف آداب الفقراء في السفر.

٨) فصل في آداب الفقراء في السماع.

فصل في آداب الفقير في فقره

فينبغي للفقير: أن تكون شفقته على فقره كشفقة الغني على غناه، فكما أن الغنى يفعل كل شيءٍ ويجتهد حتى لا يزول غناه، فكذلك ينبغي للفقير أن يفعل مثل ذلك حتى لا يزول فقره، فيسأل الله عز وجل زوال غناه إلى فقره، أو يتعرض بالمعايش والاكتساب والاسباب للاستغناء، والتكثر بالدنيا للعيال، وعفة النفس عند الضيقة.

ومن شرط الفقير: أن يقف مع كفايته، ولا يأخذ فوقها بحال، ويكون أخذه لذلك القدر امتثالاً لأمر الله تعالى، وخوفاً من الوقوع في إثم قتل النفس، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

لان منعه لنفسه حقها حرام، وهو القوت من الطعام والشراب والكسوة والقدر الذي تقوم به البنية، ولا يضعف عن أداء الأوامر من الإتيان بشرائط الصلاة وأركانها وواجباتها واجب عليه، ويترك ما هو حظها، فإن كانت قسمته فتساق إليه من غير أن يكون هو فيه بفعل الله عزَّ وجلَّ، فلا يتعرض للحظ أبداً إلا أن يكون مريضاً فيوصف له شيءٌ من الحظوظ، فيتناوله على وجه التداوي، فيصير الحظ حينئذ حقاً في حال مرضه، كالقوت في حال صحته.

وينبغي: أن يكون استلذاذه بفقره أكثر من استلذاذ الغنى بوجود غناه.

وينبغي: له أن يوثر ذله وخموله وعدم قبول الناس له وقصدهم إليه وازدحامهم لديه.

ومن شرطه: أن يكون قلبه أقوى بصفاء الحال عند خلو يده من المال، فكلما قل الفتوح كثر طيب قلبه وقوته ونوره، وازداد فرحه بشعار الصالحين، وأما إذا أظلم ذلك قلبه وأوحشه وأسخطه على ربه، فليعلم أنه مفتون قد أحدث في فقره ذنبا عظيماً، فليتب الى الله عز وجل ويستغفره، ويخلد الى التفتيش والتنقير ولوم النفس.

ومن حق الفقير: أن يكون كلما كثر عياله كان قلبه في باب أمر الرزق أسكن وبربه أوثق، يمتثل أمر ربه في الكسب لهم في الظاهر، ويسكن إلى وعد ربه في الباطن، ويقطع بأن لهم رزقاً عند الله قد وعد به وقدره ، وهو سائقه إليهم على يده أو يد غيره ، فليتنح من الوسط ولا يكون فضولياً، فيدخل بين الخلق وخالقهم، بل يمتثل الأمر فيهم، ولا يعترض ولا يسخط ولا يتهم الرب، ولا يشك في وعده ، ولا يشكو إلى أحد، بل يكون شكواه إلى ربه وإنزال حاجته به عز وجل، وكلامه وسؤاله له عز وجل في توفيقه بالصبر واداء الامر في حقهم، والرضا بما قضى عليهم بإضافتهم، والزامه له مؤنتهم، ويسأله تسهيل رزقهم وتيسيره ، فهو قريب مجيب، إنما يبتلي عبده ليرده بالبلية إليه عز وجل، لأنه يحب الملحين له بالسؤال، لان بالسؤال يتميز الرب من المربوب والسيد من العبد والغنى من الفقير، ويخرج العبد من الكبر والاستنكاف والتعظيم والنخوة الى التواضع والذلة والافتقار، فإن تحقق ذلك من العبد تحققت الإجابة سريعاً عاجلاً مع ما يدخر له من الثواب في العقبى .

ومن آدابه: ألا يكون له هم الوقت المستقبل، بل يكون بحكم وقته لا يتطلع للوقت الثاني، بل يحفظ الحال وحدودها وشرائطها وآدابها مطرقاً غاضاً عما سواها، لا أعلى منها ولا دونها، ولا يشده الى حال غيره، ربما كان هلاكه

فيها وهى لأهلها سلامة ونعمة، كالأغذية فمن الاغذية ما يزيد الشخص عافية ولآخر سقماً وبلاء، فلا ينبغي للمريض أن يتناول شيئاً منها إلا بأمر الطبيب، فكذلك ينبغي للفقير ألا يختار حالة نفسه حتى يدخل فيها من غير أن يكون هو فيها، بفعل المولى عز وجل قدراً محضاً وإرادة مجردة، لا يحل نفسه في شيء من الحالات والمقامات وينزلها به فيضل ويردى، حتى يأتيه أمر الذى أمات وأحيا، وينقله منها فعل الذي منع وأعطى، وأفقر وأغنى، وأضحك وأبكى، لأن ذلك أليق به وإلى ربه أقرب وأدنى؛ هكذا تقدم ومضى، أمر من سلف من أولي العلم من أهل الطريقة، فيما خلا فيهم الاقتداء، والى رب الخليقة المنتهى.

ومن أدب الفقير: أن يكون مستعداً لورود الموت متهيئاً له منتظراً مترقباً في الساعات كلها ليكون ذلك عونا له على الرضا بفقره وحمل ما حل به من الاذى؛ لأن به يقصر الامل وتنكسر النفس ويزول منها وهج شهوات الدنيا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أكثروا من ذكر هادم اللذات، أعني الموت.

ومن آدابه: أن يخرج من قلبه ذكر المخلوقين.

ومن آدابه: أن يتخلق مع الغني إذا دخل عليه بما تصل يداه إليه من القوت أو فاكهه وإن كان شيئاً يسيراً، لأنه بقلبه محترز عن الأسباب فهو بالإيثار أولى من الغني الذي هو في أسر غناه، إلا أن يكون ذا عيال في ضيقة، فلا يضيق على عياله بإيثاره ذلك للغني، إلا أن يكون يعلم من عياله الإيثار وطيب النفس بذلك والموافقة والصبر والرضا والمعرفة واليقين، والأنوار تظهر

من قلوبهم على السنتهم وجوارحهم وأنفسهم، فحينئذ لا يبالي في البذل والمنع والإيثار والإمساك.

ومن أدب الفقير: ألا يترك الاحتياط في الورع في ضيق اليد، فلا يخرج الى ما لا يحل في الشرع لفقره، فيخرج من العزيمة إلى الرخص، لأن الورع ملاك الدين والطمع هلاكه، وتناول الشبهات فساده، كما قال بعض الصالحين: من لم يصب الورع في فقره أكل الحرام وهو لا يدرى، فعليه ألا يخلد الى التأويلات في دينه في حالة فقره، بل يرتكب الأشق والأحوط الذى هو العزيمة.

فصل في آداب الفقير في سؤاله

فمن أدب الفقير: ترك السؤال للخلق ما دام يجد عنه مندوحة، فإن ألجأته الضرورة والحاجة المحقرة، فيسأل بقدر الحاجة فتكون حاجته كفارته، فحينئذ يسلم له السؤال .

وينبغي: ألا يسأل لأجل نفسه ما أمكنه بل لعياله على ما قدمناه، فإن كان بيده دانق وهو محتاج إلى درهم لم يسلم له السؤال حتى يصرف الدانق ويخلو عن المعلوم جدا كما قيل: لا يظهر من الغيب شيء ما دام في الجيب شيء .

ومن شروط سؤاله للخلق: ألا يراهم بل تكون اشارته الى الله عز وجل، ويرى الخلق كالوكلاء والأمناء المتصرف فيهم المفعول فيهم فلا يتخذهم أرباباً من دون الله عز وجل، فيكون مع سؤاله لهم إخباراً واستخباراً، إخبارا بحاله وعياله لا شكوى من ربه، واستخباراً هل وقع لنا إليك شيءٌ، هل أجل عليك شيء، هل أذن لك يا وكيل يا خازن، يا أمين يا مملوك يا فقير يا من أنا وهو سواء فيما في يديه المالك له غيرنا كلنا في عياله.

فإذا سأل على هذا الوجه يسلم له السؤال وإلا فلا، ولا كرامة لكل مشرك دجال مراءٍ عابد الاصنام، خارج عن أهل الطريقة مدع كذاب منافق وزنديق، ثم إن أعطي شكر وإن منع صبر.

هكذا تكون صفات الفقير الصادق، ولا يستوحش بالرد ولا يتغير فيسخط ويعترض ويذم الراد له فيظلمه، لأنه مأمور ووكيل، والوكيل هو الذى يتصرف فيما في يده بإذن آمره وموكله المعطي، وهو الله عز وجل، بل يرجع إليه عز وجل، فيسأله التيسير والتسهيل، ليسخر له القلوب ويذل له الصعاب،

ويدر له الارزاق ويسوق إليه الاقسام، ويرفع عنه الجوع والعذاب والتبذل إلى العبيد والارباب، ولعله قبض أيدي الخلق عنه بالعطاء ليرده اليه، فيلازم الباب ويرفع بدعائه وتضرعه الحجاب، فيكون هو المعطي له دون العباد.

فصل في آداب العشرة

وينبغي له: أن يحسن العشرة مع إخوانه، فيكون منبسط الوجه غير عبوس، ولا مخالفاً لهم فيما يريدون عنه بشرط ألا يكون فيه خرق للشرع ومجاوزة للحد وارتكاب للإثم، بل يكون مما أباحه الشرع وأذن فيه الرب

ولا يكون: مماريا ولا لجوجاً.

ويكون: أبداً مساعداً للإخوان على الشرط الذي ذكرنا ومتحملاً عنهم ما يخالفونه فيه،

ويكون: صبوراً على أذاهم غير حقود، لا ينطوي لأحد منهم على دخلة وغش ومكر، غير مغتاب لهم في حال غيبته،

ولا يكون: سيء المحضر، ويذب عن أخيه في حال غيته، ويستر العيوب على إخوانه ما أمكنه.

وإن مرض أحد منهم: عاده، فإن شغله عن ذلك شاغل مضى إليه فهنأه بالعافية، وإن مرض هو ولم يعده بعض إخوانه اعتذر عنه، فإذا مرض لم يقابله بذلك، بل يعوده ويصل من قطعه، ويعطى من حرمه، ويعفو عمن ظلمه.

وإذا أساء أحدهم اليه: اعتذر عنه عند نفسه ويرجع بالملامة على نفسه، ولا يرى ملكه ممنوعاً عن غيره من الاخوان، ولا يتحكم في ملكهم بغير إذنهم، ولا ينسى الورع في جميع حركاته وسكناته،

وإن انبسط معه أحد: من إخوانه في شيء من ماله أجابه إلى ذلك مسرعاً مستبشراً فرحاً مسروراً متقلداً منة في ذلك منه، حيث جعله أهلً لمباسطته معه وإنزال حاجته به.

ولا يستعير: من أحدٍ شيئاً إن أمكنه، وإن استعار أحدٌ منه شيئاً لا يسترده ما أمكنه لأنه ما استعار منه إلا لحاجته، ولا يليق بالفتوة استرداد المعار، كما لا يحسن في الشرع استرجاع الهدية والهبة، فإن لم يقدر على ذلك فليسرع إعارته، ولا يمنعه من ذلك ولو كل يوم، إذ لا يليق بحاله أن ينفرد عن أحد من الناس بما له، لأنه ليس في رق شيء من الأشياء فلا يملكه شيء، فكل من ملك شيئاً فذلك الشيء يملكه، لأن المرء عبد لمن زمامه بيده، بل يرى الاشياء التي في يده ملكا لله عزَّ وجلَّ وهو وبقية الناس عبيدا لله عز وجل، والكل متساو في ملكه عزّ وجلّ، وأما كان في يد الغير فيستعمل فيه حكم الشرع والورع وحفظ الحدود؛ لئلا يصير في زمرة المباحية الزنادقة.

وينبغي له: إذا مسته محنة أو فاقة أن يستر حاله من إخوانه ما أمكنه، لئلا يشغل قلوبهم بسببه، فيتكلفوا له، وكذلك إن مسه هم أو أصابه حزن لا يظهر ذلك لإخوانه، ولا يشوش عليهم ما هم فيه من الفرح والسرور، والراحة ولذة العيش وإن رأى اخوانه منزولاً بهم هم وغم وقد اظهروا فرحاً وسروراً ساعدهم في الظاهر من إظهار النشاط والاستبشار، ويكتم عنهم ما هم فيه من الاستيحاش والحزن والهم، فلا يقابلهم بما يكرهون، ولا يختلف عنهم في شيء من ذلك.

وينبغي له: في أدب حسن العشرة إذا استوحش من شيء أن يتكلم في حسن الخلق، ويرد قلبه إليه لتزول و حشته.

وينبغي له: أن يعاشر كل أحد من حيث هو لا يكلفه مجاورة حده وموافقته؛ بل يتابعه هو فيما عليه ذلك الإنسان ما لم يكن فيه خرق للشرع، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أمرنا معاشر الانبياء أن نحدث الناس على قدر عقولهم.

وينبغي له: أن يعاشر من دونه بالشفقة عليه، ومن فوقه بالإجلال، ومن هو مثله بالإفضال والإيثار والإحسان.

فصل في آداب الفقراء عند الأكل

من ذلك: ألا يأكلوا بالشره ولا على الغفلة، بل يذكروا الله عز وجل بقلوبهم عند الاكل ولا ينسونه.

ومن ذلك: الا يمدوا أيديهم عند الطعام قبل من هو فوقهم.

ومن ذلك: ألا يقولوا لغيرهم كُلْ، ولا يضعوا مما بين أيديهم شيئاً بين يدي غيرهم، لا على طريق الخدمة ولا على طريق الانبساط إلا صاحب الطعام، فإنه مسلم له ذلك لأنه نوع خدمة منه، ولا يقولوا لصاحب الطعام كُلْ معنا.

وإذا أقعد موضعاً: فلا يختار غيره ويقعد حيث يؤمر.

ولا يرفع يده: من الطعام ما دام يأكل من معه لئلا يحتشم صاحبه فيحمله على الامتناع.

ولا ينبغي: أن يرفع الطعام من بين يدى الفقير ما دام يأكل وما دام عينه عليه، ويساعد الأصحاب على الاكل بقدر ما لا يكون مخالفة وإن لم يكن به شهوة.

ولا ينبغي: أن يلقم على المائدة أحداً، وإن عرض عليه الماء لا يرد الساقي ولو بقطرة واحدة، ولو قام صاحب الطعام بالخدمة لا يمنع، ولو أراد صب الماء على يده فلا يمنعه.

وينبغي أن: يأكل مع الاغنياء بالتعزز، ومع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط.

ولا يخطر الاكل بباله: إلا إذا حضر، فحينئذ يأكل ولا يساعد نفسه في اشتهاء شهوة، ولعلها لم تكن مقسومة، فلا ينالها فيبقى محجوباً بها عن الله تعالى، ويشتغل بها عن طاعته و مراقبة حاله، فاذا أعرض عن ذلك و اشتغل بحاله كان سليما، فان كانت مقسومة ثم حضرت اشتهاها و تناولها و شكر الله تعالى.

ولا يجعل الأكل همه: و يعلق قلبه به و يجعله حديثه، بل يمهد مع نفسه بأنها مريضة، ومن حالها الاحتماء عن الطعام والشراب والشهوات حتى يبرأ المرض، فالمرض هواها وارادتها ومناها، والرب عز وجل طبيبها ومداويها، فاذا بعث الطعام و الشراب علي يد مملوكه تناولهما وعلم أن دواءها وعافيتها في ذلك دون غيره، واشتغل بحفظ الحال و المراقبة واخراج الاشياء من القلب والارتكان الى شيء من الأشياء و الطمأنينة اليه أبدا في جميع حركاته و سكناته .

فصل في أداب الفقراء فيما بينهم

من ذلك: ألا يمنع شيئاً يكون له من أصحابهم من ثيابهم وسجاداتهم وركوبهم و ما يجري مجراه.

ولو وطئ أحد منهم سجادته بقدمه لا يستوحش منه، ولا يضع قدمه على سجادة غيره، ولا يبسط سجادته على سجادة من هو فوقه في الرتبة.

ولو مد أحد يده إلى كتفه لا يمنعه، ولا يمد هو يده إلى كتف غيره، ولا يستخدم أحداً من الفقراء، ويخدم هو، بنفسه كل أحد، ويغمز أرجل الفقراء ،ولو أراد أحد ان يغمز رجله لا يمنعه.

وإذا دخلوا الحمام: فليس من آداب الفقراء أن يمكِّنوا القيم من دلكهم ، ولو أراد بعضهم دلك بعض مكنه منه ولا يمنعه.

وإذا نظر فقير: إلى شيء من خرقته او سجادته او غير ذلك فليدفعه إليه في الوقت وليؤثره به.

و لا ينبغي: أن يجعل الفقراء في انتظاره عند الاكل، وكذلك في كل شيء لا يؤذي قلب أحد بأن ينتظره ما أمكنه، فإن المنتظر مستثقل ،و إذا أراد أن يقدم إلي فقير طعام فيجب أن لا يحبسه في الانتظار ،لأن انتظار المرقة ذل.

ولا ينبغي: أن يدخر شيئاً مما يمكنه ،و إذا لم يكن الطعام كثيراً فلا يأكل إلا بعدما يفضل منه، ويجتهد في تقديم الطعام للفقراء، أن يكون أنظف ما يمكنه وأوفق لهم، وإن كان في قوم فلا ينبغي أن ينفرد عنهم بأكل شيء و لا يأخذ شيء، فإن فتح له بشيء ينبغي أن يطرحه في الوسط.

وإن مرض وهو بين قوم فاحتاج إلي تخصيصه بدواء، فينبغي له أن يستأذن الجماعة في ذلك. وإذا نزل برباط أو مدرسة وفيها شيخ أو خادم فينبغي أن يكون بحكم ذلك الشيخ ولا يفعل شيئاً إلا باستطلاع رأيه، وإذا ورد على قوم وهو يحكم فينبغي أن يوافقهم على ما هم عليه.

ولا ينبغي: أن يرفع صوته بين الفقراء بتسبيحه وقراءته، بل يخفي ذلك عنهم ويستتر به، أو ينقل ذلك إلى تفكر وعبادة باطنه، وإن كان من الخواص ذوي الاسرار فلا كلفة عليه في ذلك، لأن ربَّه يتولاه و يهيئ له و يأمره و ينهاه في ذلك، ويسخر له قلوب الجماعة و يعطفها عليه ويملؤها من حبه تارة و هيبته واحترامه أخرى .

وكذلك لا ينبغي: أن يرفع صوته بغير ذلك من الكلام بينهم، وإذا كان بين قوم فينبغي ألا يسارَّ أحدا دونهم، ولا يتكلم بين الفقراء بشيء من حديث الدنيا والمأكولات ما أمكنه .

ومن شرطه: أيضا ألا يكتب بين الفقراء شيئاً ما أمكنه ووجد من ذلك بداً، بل يشتغل بالعمل المكتوب ومراقبة قلبه وحفظ حاله والتفكر فيهما، ولا يكثر من النوافل بين أيديهم، وإذا صام الجماعة وافقهم في ذلك، وكذلك إن أفطروا وافقهم في ذلك، ولا يتفرد عنهم بالصوم ، ولا ينام بين الفقراء وهم أيقاظ إلا أن يغلب عليه النوم، فيتفرد عنهم و يضطجع بقدر ما تنكسر فورته.

ولا ينبغي: له أن يتقدم بمشيئته شيء واختياره علي الفقراء اذا أمكنه، وإن طالبه الفقير بشيء فلا يرده ولو بقليل، ولا يؤذي قلبه بطول الانتظار.

وإذا شاوره أحد: فلا يعجل عليه بالجواب فيقطع عليه كلامه، بل يمهله حتي ينهي جميع ما في قلبه، ولا يجيبه بالرد والإنكار فاذا فرغ من ذلك و رآه غير صواب قابله أولاً بالموافقة، وقال: هذا وجه، ثم يبين له ما هو أصوب منه عنده برفق لا بمخاشنة ووحشة.

ومن آدابهم: ألا يمدحوا الطعام حال الاكل و لا يذموه.

فصل في آداب الفقراء مع الاهل و الولد

ومن ذلك: حسن الخلق والانفاق عليهم بالمعروف بما أمكنه، وإذا ملك في اليوم ما يكفيه ليومه فلا يحبس شيئاً لغد، وله إلى ذلك القدر حاجة في الحال، فإن فضل من ذلك شيء فليدخره لغد للعيال لا لنفسه، فلا يأكل إلا تبعاً لهم، بل يكون كالوكيل والخادم لعياله والمملوك مع سيده، ويعتقد بخدمته عياله والكد عليهم والقيام بمصالحهم أداء أمر الله وطاعته، ويعتزل خدمة نفسه من الوسط ويؤثر عياله علي نفسه، وإذا أكل أكل بشهوتهم، ولا يحملهم علي متابعة شهوة نفسه.

وإذا كان في ذات يده شيء يصلح لشتائه وهو في الصيف محتاج لثمنه صرفه في وجه حاجته في الصيف.

وإن وجد كفاية يومه وكان فيه فضل للكسب في يومه لكفاية غد لعياله لم يشتغل بذلك، بل يقف مع الكفاية في يومه، لأن الوقوف مع الكفايات واجب، وأخر تدبير غد الي غد.

فإن كان له قوة في التوكل وصبر علي مقاساة الشدائد والقلة والجوع والضر؛ وتقصر قوة عياله عن ذلك، فلا يجوز له أن يدعوهم إلى حالة نفسه، بل يتحرك ويكتسب لأجلهم.

وإن رأى من أهله الطاعة لله عز وجل وحسن السيرة والعبادة، فعليه بكسب الحلال واطعامهم الحلال المباح حتي يثمر ذلك الطاعة والصلاح، ولا يطعمهم الحرام: فإنه يثمر العصيان والجناح.

وليجتهد في ذات نفسه بإصلاح العمل والصدق وطهارة الباطن حتى يصلح الله أمره بينه وبين عياله في حسن الصبر وحسن الطاعة له ولله عز وجل والموافقة له، وتعود بركة صلاحه علي عياله، قال النبي صل الله عليه وسلم : من أصلح ما بينه و بين الله عز وجل، أصلح الله تعالى ما بينه وبين الناس، وأهله وعياله من جملة الناس.

وإذا نزل به ضيف فيجب أن يطعم عياله مما يطعم الضيف إذا كان بذات يده سعة ومكنة فليوفر ذلك، بحيث يعم الجميع ويكفيهم ويفضل عنهم، فإن كان هنالك فقر وقلة وضيق يد، وعلم من عياله الإيثار والرضا بذلك، فحينئذ يؤثر الضيفان، فإن فضل عنهم شيء تناولوه على وجه التبرك، فإن الله تعالى سيخلف عليهم ويوسع ما لديهم، فإن الضيف ينزل برزقه ويرحل بذنوب أهل البيت، كما جاء في الحديث.

و إذا دعي الفقير إلى دعوة وله عيال وليس له ما يصلح شأنهم فليس من الفتوة أن يضيع عياله ويمضي إلي الدعوة ويؤثر شهوته على فاقة عياله، ولا يستقيم في الطريقة والشريعة أخذ الذلة والخيبة لأجل العيال من الدعوة، فليمتنع في الحضور وليصبر مع أهله، فإن كان صاحب الدعوة فتوة وعلم بأن للضيف عيالاً، فينبغي له ألا يفرده بالاستحضار، بل يفرغ قلب الضيف عن شغل عياله بأن يكفيه ذلك، ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه، ويعلم ضيفه ذلك .

والواجب على الفقير: أن يؤدب أهله بملازمة ظاهر العلم والشريعة، ولا يمكنهم من مخالفة العلم في القليل والكثير.

ولا ينبغي: له أن يسلم أولاده إلى السوق وتعلم الحرف، بل يعلمهم أحكام الدين ويحملهم على ترك طلب الدنيا، إلا أن يغلب عليه الفقر وقلة الصبر وانكشاف الحال والفضيحة والرجوع إلى الخلق في القوت وما يسد به الخلة، فليشغل أهله وولده ونفسه بالكسب وتحصيل ما يحصل به الغنى عن الناس، فهو أفضل من غيره مع حفظ الحدود، ويعرف أولاده وجوب مراعاة حق الوالدين ومجانبة العقوق، ويعرف أهله مراعاة حقه، وفضيلة الصبر معه وطاعته وغير ذلك على ما بينا في باب آداب النكاح.

فصل في آداب الفقراء مع في السفر

وقد ذكرنا في كتاب الأدب في أثناء الكتاب أنه يجب أن يكون سفر المؤمن الخروج من أوصافه المذمومة إلى صفاته المحمودة، فيخرج من هواه إلى طلب رضا مولاه بتصحيح تقواه، فإذا أراد الفقير أن يسافر من بلده، فأول شيء يجب عليه أن يُرضي خصومه ويستأذن والديه أو من هو في حكمهما في وجوب الحق عليه من العم والخال والجد والجدة، فإذا رضوا بذلك خرج، فإن كان ذا عيال وفي سفره عنهم مضرة عليهم وضيقة، فلا يسلم له السفر إلا بعد إصلاح أمورهم أو يستصحبهم معه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت.

ومن شرط الفقير: إذا سافر أن يكون قلبه معه، لا يكون قلبه ملتفتاً إلى علاقة وراءه، ولا يكون قلبه متعلقاً بمطالبه أمامه، فحيثما نزل يكون قلبه معه ويكون قلبه خالياً عن الأشياء، كما قيل عن إبراهيم بن دوحة أنه قال: دخلت مع إبراهيم بن شيبة البادية فقال لي: اطرح ما معك من العلائق، فطرحت كل شيء إلا ديناراً، فقال: لا تشغل سري، اطرح ما معك، فطرحت الدينار، فقال: لا تشغل سري، اطرح ما معك من العلائق، فذكرت أن معي شيوعاً للنعل فطرحتها، فو الله ما احتجت في الطريق إلى شسع إلا وجدته بين يدي فقال ابن شيبة : هكذا من عامل الله تعالى بالصدق.

ولا ينبغي: أن يقصر في سفره من أوراده التي كان يفعلها في حضره لأن السفر لهم زيادة في أحوالهم، فلا ينبغي أن يحصل لهم خلل في أعمالهم و أحوالهم بسفرهم، وإنما الرخص للضعفاء والعوام، وما للأقوياء والخواص

بالرخص، بل العزيمة شأنهم أبداً في جميع أحوالهم، والتوفيق شامل لهم، والرحمة نازلت عليهم، والحرس قائم معهم، والحفظ دائم لهم، والحبيب جالس معهم، والأنس به زائد، والغنى به قائم، والامداد متداركة ومتواترة، والنظر لهم لأزم، والجنود لهم متكاثفة متتابعة ومشتبكة لديهم، فالسفر أقوى لهم وألين وأحسن بما هم بصدده، إذ فيه البعد من الأسباب التي هي الأرباب والخلق الذين هم الأصنام، وأضل من الصلبان وأشد من الشيطان.

وينبغي للفقير: أن يراعي قلبه في أول سفره، ولا يخرج عن الغفلة، ويجتهد في سفره حتى لا ينسى بقلبه ربه في سفره.

ولا ينبغي له: أن يكون سفره لغرض من أغراض الدنيا بوجه من الوجوه، بل يكون سفره لطاعة من الطاعات، إما للحج أو للقاء شيخ أو لزيارة موضع من المواضع المقدسة الشريفة.

وإذا سافر الفقير فوجد قلبه بموضع من المواضع، ورآه فيه أصفى من الكدورات وعيشه أوفى فيلزم ذلك الموضع ولا يزول عنه إلا بأمر جزم أو فعل محض وقدر، فليتنح حينئذ إلى ما يؤمر به، أو يحمله القدر إذا كان من المفعولين فيهم الزائل الهوى والأرادات والأماني، الفانيين عنهم المرادين المحبوبين.

وإذا ظهر لفقير جاه وقبول ببعض المواضع، فينبغي له أن يخرج منه ويشوش على نفسه ذلك القبول، لئلا ينفى به عن الله و يحجب عنه، فيكون الخلق نصيبه، وهذا إنما يكون مع وجود الهوى، وأما مع زواله فلا وجود

للخلق ولا لقبولهم أثر، فهم خارجون عن القلب و بينهما حجب وحرس يحفظون القلب عن دخول الخلق اليه، لئلا يحصل الشرك فيتشعث التوحيد.

وينبغي للفقير: أن يعاشر أصحابه في سفره بحسن الخلق وجميل المداراة، وترك المخالفة واللجاج في جميع الأشياء، ويشتغل بخدمتهم، ولا يستخدم منهم أحداً.

و ينبغي أن: يكون أبداً في سفره على الطهارة و إن لم يجد الماء يتيمم ما أمكنه ذلك، كما يستحب له في حضره أن يكون على الطهارة لأن الوضوء سلاح المؤمن، كما جاء في الخبر، وهو أمان له من الشياطين وكل مؤذ .

وينبغي: ألا يصحب الأحداث المردان في السفر على الخصوص، فإنهم أقرب إلى مصافاة الشياطين والقبول منها وإلى الشر والفتن والغش ومتابعة الهوى وهنات النفس والتهمة وفي صحبتهم خطر عظيم، إلا أن يكون الفقير ممن يقتدى به من الشيوخ والعلماء بالله وأبدال أنبيائه المحفوظين الأئمة الهداة الربانيين معلمي الخير المؤدبين المنذرين للخلق والمهذبين لهم، السفراء بين الحق والخلق، الجهابذة ،فحينئذ لا يبالي بمن يصحبه من الأحداث والشيوخ .

وإذا دخل بلداً وفيه شيخ، فينبغي أن يبدأ بسلامه عليه وخدمته له، وينظر بعين الإكبار والحشمة والتعظيم، لئلا يحرم فائدته، واذا فتح له بشيء فلا يستأثر به دون أصحابه، وإذا وقع لأحدهم عذر وقف معه ولا يضيعه، والله الموفق للصواب .

فصل في آداب الفقراء في السماع

من ذلك: ألا يتكلفوا السماع ولا يستقبلوه بالاختيار، فإذا اتفق السماع فمن حق المستمع أن يقعد بشرط الأدب ذاكراً لربه بقلبه مشتغلاً بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان.

فإذا قرع سمعه شيء يرى القارئ للقرآن كأنه مستنطق من قبل الحق عز و جل فيما يرد عليه من تعريفات الغيب إياه، مما يوجب ترغيباً أو ترهيباً أو إيناساً أو عتاباً أو زيادةً في القيام بعبادته عز وجل أو غيره، بادر إلى ما يرد عليه، وقابل الإشارة عليه بالبدار.

وإن كان السماع بحيث يصير كأن لسان القارئ لسانه، وصار كأنه يخاطب هو الحق بما يقرأ القارئ، فما يحصل مما يجده في قلبه من ذلك يكون موافقاً لحق العبودية وآداب الشريعة، وفي الجملة لا يكون في الطريقة ولا في علم الحقيقة شيء يخالف آداب الشريعة، وإذا كان في القوم شيخ حاضر في السماع، فالواجب على الفقير السكون ما أمكنه ومراعاة حشمة ذلك الشيخ، فإن ورد عليه أمر غالب فبقدر الغلبة يسلم إليه الحركة، فإذا سكنت الغلبة فالأولى له السكون مراعاة لحشمة الشيخ.

ولا ينبغي: للفقير أن يتقاضى القارئ ولا القوال، إن استبدل القول الذي هو أدنى بالذي هو خير، يعني الأبيات بالقرآن على ما هو عادة أهل الزمان اليوم، فلو صدقوا في قصدهم وتجردهم وتصرفهم لما انزعجوا في قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كلام الله عز وجل، إذ هو كلام محبوبهم وصفته، وفيه ذكره وذكر الأولين والأخرين، والماضين والغابرين والمحب والمحبوب والمريد

والمراد، وعتاب المدعين لمحبته و لومهم وغير ذلك، فلما اختل صدقهم وقصدهم وظهرت دعواهم من غير بينة، وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة من غير غريزة باطنة وصدق السريرة والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة، والاطلاع على الأسرار والقرب والأنس، والوصول إلى المحبوب، والسماع الحقيقي وهو الحديث، والكلام الذي هو سنة الله عز وجل مع العلماء به والخواص من الأولياء والأبدال والأعيان، وخلت بواطنهم من ذلك كله، وقفوا مع الاقوال والابيات والاشعار التي تثير الطباع وتهيج ثائرة العشاق بالطباع لا بالقلوب والأرواح .

فينبغي للفقير: في الجملة: أعني فقير الحق عز وجل، وفقير الخلق: أعني فقير المعنى، وفقير الصورة: أعني فقيراً من الدنيا وفقيراً من العقبى والأكوان، ألا يتقاضى القارئ والقوال بالتكرار والإعادة، بل كل ذلك إلى الحق سبحانه إن شاء قيض من ينوب عنه في التقاضي، أو يلهم القوال بالتكرار إذا كان الفقير المستمع صادقاً وله في التكرار دواء ومصلحة .

ولا ينبغي للفقير: أن يستعين بغيره في حال السماع، فإن سأل الفقراء منه المساعدة في الحركة فليساعدهم، وذلك ضعف في الحال.

واذا سمع الفقير آية أو بيتاً فلا يجب أن يزاحمه أحد، ويجب أن يسلم له وقته، وإن خولف فزوحم فالأولى للمزاحم له التسليم،

وإذا تحرك الفقير علي آية أو بيت، فيجب أن يسلم له وقته، وإن وقع للحاضرين عليه إشراف ورأوا فيه تقصيراً أو نقصانا فالواجب عليهم الستر عليه والحمل عنه، فان اقتضى الوقت تنبيهه فلينبه بالرفق أو بالقلب لا

باللسان، وهاهنا يحتاج الي قوة حال وصفاء باطن وعلم دقيق وإطلاع وآداب كاملة ومحافظة شديدة حميدة.

وإذا خرج في حال سماعه من خرقة أو من شيء من ثيابه، فلا يخلو إما أن يكون قد تخلق به مع القارئ على الخصوص أو يطرحه في الوسط فيكون حكمه إليه، فيقال له: ما الذي اردت به؟ فإن قال: قصدت به أن يكون بحكم الفقراء كان ذلك خلقاً منه معهم فهو لهم بحكم الفتوح، وذلك إليهم يرون فيه رأيهم ، وإن قال: أردت به موافقة شيخ طرح خرقته، فهذا ضعيف الحال جداً ركيك الامر حقا، لأنه إنما ينبغي أن يوافق الشيخ في حكم خروجه عن خرقة من قد وافق الشيخ في وجده وحالته، وذلك بعيد جداً أن يتفق اثنان منهم في الحال، والذي جرت به العادة بين الفقراء واستمر به الرسم بينهم اليوم في الموافقة في طرح الخرقة، فليس له أصل.

ثم إذا جرى منه ذلك مع ضعفه فحكم خرقته المطروحة إلى ذلك الشيخ في رسم العادة لا في العلم والشريعة، أو في مقتضى الطريقة والحقيقة،

وإن قال صاحب الخرقة : أردت موافقة القوم الحاضرين فهذا أيضاً أضعف من الأول، لأنه انما ينبغي أن يكون الاشتراك في الفعل عند الاتفاق في الحال و الوجد، وقلما يتفق ذلك للقوم حتي يستووا في الشرب والحال، فيرجع في ذلك إلى القوم، فما يكون حكم خرقهم فله أسوتهم في ذلك.

فإن قال لم يكن لي في الوقت قصد ولا نية، يقال :فالآن هو بحكمك فاحكم فيه بما شئت، وليس لأحد من الحاضرين ولا للشيخ إن كان حاضر

في ذلك حكم البتة، اذ ليس صاحبه فيه محقاً، ولا له قصد ولا لذلك أصل في الطريقة.

فإن قال: وردت علي في الوقت الاشارة بالخروج من الخرقة من غير قصد الي شيء علي التعيين، فقد يكون لهذا في الطريقة أصل لأن من خلع عليه السلطان خلعة، فالواجب على المخلوع عليه أن ينزع ملبوسه ثم يلبس الخلعة، فهذا حكم هذا الفقير أن يخرج من خرقته ويلبس ما خلع عليه البارئ عز وجل من الأنوار والقرب والألطاف، ثم إن حكم خرقته إلى الشيخ الحاضر إن كان هناك، وإلا فللحاضرين من الفقراء أن يفردوا القارئ أو القوال بها، وقد قيل: إن ذلك إلى الفقير ، وهو أولى بحكم خرقته من غيره، فأما معارضة الحاضرين من أرباب الدنيا ليشتروا الخرقة ثم ترد الي صاحبها فذلك غير محمود في الطريقة و غير مرضى ، اللّٰهُمَّ ان كان المشترى فيه فتوة و ايمان بالقوم يريد أن يتخلق معهم ، وهو نوع من المعاوضة والسؤال بالتلطف، ولكنه مذموم جداً، لأنه في حال خروجه عن الخرقة أظهر صدق من نفسه في الحال وبرجوعه إلى الخرقة فاضح لنفسه ومكذب لها، وذلك غير مرضى .

ولا ينبغي: لمن خرج من خرقته أن يعود اليها ويقبلها، فإن كان ذلك بإشارة شيخ بأن أمره بأخذها فإنه يأخذها جهراً امتثالاً لأمر الشيخ، ثم يخرج منها بعد ذلك فيتخلق بها مع غيره، وإذا وقع شيء في الوسط للجماعة فالواجب التسوية بينهم، فان كان فيهم شيخ ورأى تخصيص قوم أو واحد من الحاضرين، فحكم ذلك الى الشيخ يتبع رأيه فيه، فلو طرح خرقته فردت عليه فكانت طريقته ألا يرجع الى شيء خرج منه ، وعاد الفقراء الى خرقتهم، فان كان له شيخ كان له أن لا يرجع إلى خرقته ويلزم طريقته، فلا يرجع إلى ما

خرج منه، ولا ينقص حالته اتباع لأحوال الجماعة، وإن كان واحداً من الفقراء فالأظرف من حاله والأليق بها أن يوافق الجماعة في الحال، فيعود الى خرقته، لئلا يخجل القوم ويستحيوا ويمقتوه، ثم بعد ذلك يخرج منها الي الحاضرين وهو الأولى ،وإن دفعها الى غائب عن المجلس جاز.

وهذا آخر ما ألفنا من آداب القوم علي وجه الاختصار والاقلال والامكان في الوقت.

وأما ما يتعلق بدخول الرباط و السقايات و لبس الحذاء و أشياء أحدثوها ووصفوها وسموها بينهم، فذلك يستفاد من ممارستهم ومخالطتهم والاستخبار والاشارة منهم، فلم نسطره في الكتاب، وقد ذكرنا معظم ذلك في كتاب الأدب في الشرع في أثناء الكتاب.

الباب الخامس في أسس الطريقة

١) فصل في المجاهدة.

٢) فصل في التوكل.

٣) فصل في حسن الخلق.

٤) فصل في الشكر.

٥) فصل في الصبر.

٦) فصل في الرضا.

٧) فصل في الصدق.

قال الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه:

ثم نختم الكتاب بذكر باب يشتمل على :المجاهدة والتوكل وحسن الخلق والشكر والصبر والرضا والصدق إذ هذه الأشياء السبعة أساس لهذه الطريقة والكل خير.

الأساس الأول: المجاهدة

أما المجاهدة: فالأصل فيها قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾]العنكبوت:٦٩[.

وروى أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الجهاد قال: كلمة حق عند سلطان جائر، ودمعت عينا أبي سعيد رضي الله عنه.

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله: من زين ظاهره بالمجاهدة، حسن الله سرائره بالمشاهدة، قال الله عز وجل:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ وكل من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمة .

وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله: من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو غلط.

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله: من لم تكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة.

وقال أيضا رحمه الله: الحركة بركة ، حركات الظواهر توجب بركات السرائر.

وقال الحسن بن علوية: قال أبو يزيد رحمه الله: كنت ثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كنت مرآة قلبي, وسنة أنظر فيما بينها فإذا في وسطي زنار ظاهر فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة, ثم نظرت فإذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع, فكشف لي, فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى, فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

وعن الجنيد رحمه الله قال: سمعت السري رحمه الله يقول: يا معشر الشباب جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصروا كما قصرت, وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة.

وقال الحسن القزار رحمه الله: بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: ألا يأكل إلا عند الفاقة, ولا ينام إلا عند الغلبة, ولا يتكلم إلا عند الضرورة.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

١) الأولى: يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة.
٢) والثانية: يغلق باب العز ويفتح باب الذل.
٣) والثالثة: يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.
٤) والرابعة: يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.
٥) والخامسة: يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.
٦) والسادسة: يغلق باب الأمل ويفتح باب الإستعداد للموت .

وقال أبو عمر بن نجيد رحمه الله: من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه.

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام : أنا جائع فالزموه السوق وأمروه بالكسب.

وقال ذو النون المصري رحمه الله: ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه, وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: ما هالني شيء إلا ركبته.

وقال محمد بن الفضيل رحمه الله: الراحة هي الخلاص من أماني النفس.

وقال منصور بن عبد الله رحمه الله: سمعت أبا علي الروذباري رحمه الله يقول: دخلت الآفة من ثلاث: سقم الطبيعة, وملازمة العادة, وفساد الصحبة, فسألته: ما سقم الطبيعة؟ فقال: أكل الحرام, فقلت: وما ملازمة العادة؟ قال: النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة, قلت: فما فساد الصحبة؟ فقال: كلما هاجت النفس شهوة يتبعها.

وقال النصر أباذي رحمه الله: سجنت نفسك, إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد.

قال أبو الحسن الوراق رحمه الله: كان أجل أحكامنا في مبادئ أمرنا في مسجد أبي عثمان: الإيثار بما يفتح علينا، وألا نبيت على معلوم، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم منه لأنفسنا، بل نعتذر إليه ونتواضع له، وإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته، فمجاهدة العوام في توفية الأعمال، ومجاهدة الخواص تصفية الأحوال، في وقد تسهل مقاساة الجوع والعطش والسهر، ومعالجة الأخلاق الرديئة تعسر وتصعب.

ومن آفات النفس: ركونها إلى استحلاء المدح والذكر الطيب وثناء الخلق، وقد تحتمل أثقال العبادات لذلك، ويستولي عليها الرياء والنفاق.

وعلامة ذلك: رجوعها إلى الكسل والفشل عند انقطاع ذلك، وذم الناس لها.

ولا يتبين لك آفات النفس وشركها ودعواها وكذبها إلا عند الامتحان في مواطن دعواها وعند الموازنة لها، لأنها تتكلم بكلام الخائفين ما لم تضطر إلى الخوف، وإذا احتجت إليها في مواطن الخوف وجدتها آمنة.

وتقول قول الأبرار ما لم تمتحن بالتقوى، وإذا احتجت إليها وطالبتها بشروط التقوى وجدتها مشركة مرائية مزينة معجبة.

وتصف وصف الصادقين ما لم تحتج إلى الغاية، فإذا طلبت منها ذلك وجدتها كذابة.

وتدعي دعوى الموقنين مالم تمتحن بالإخلاص وتزعم أنها من المتواضعين ما لم يحل بها خلاف هواها عند الغضب.

وكذلك تدعي السخاء والكرم والإيثار والبذل والغنى والفتوة وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، أخلاق الأولياء والأبدال والأعيان تمنياً ورعونة وحمقاً.

وإذا طالبتها بذلك وامتحنتها لم تجدها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً.

ولو كان ثَمَّ صدق وإخلاص وصح منها القول وصدق بالقول لسانها لما أظهرت التزين للخلق الذين لا يملكون لها ضراً ولا نفعاً ولصحت أعمالها عند الامتحان فوافق قولها وعملها.

وقال أبو حفص رحمه الله: أنفس ظلمة كلها وسراجها سرها، يعني الإخلاص، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه في سره توفيق من ربه كانت ظلمة كلها.

وقال أبو عثمان رحمه الله: لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال.

وقال أبو حفص رحمه الله: أسرع الناس هلاكاً من لا يعرف عيبه، فإن المعاصي بريد الكفر.

وقال أبو سليمان رحمه الله: ما استحسنت من نفسي عملاً فاحتسبت به.

وقال السري رحمه الله: إياكم وجيران الأغنياء وقراء الأسواق وعلماء الأمراء.

وقال ذو النون المصري رحمه الله: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء:

١) أولها: ضعف النية بعمل الآخرة.

٢) والثاني: صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم.

٣) والثالث: طول الأمل مع قرب الأجل.

٤) والرابع: آثروا رضى المخلوقين على رضا الخالق.

٥) والخامس: اتبعوا أهواءهم، ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم.

٦) والسادس: جعلوا قليل زلات السلف حجة أنفسهم، ودفنوا كثير مناقبهم.

فصل في الأصل في المجاهدة:

والأصل في المجاهدة مخالفة الهوى: فيعظم نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات، ويحملها على خلاف ما تهوى في عموم الأوقات، فإذا انهمك في الشهوات ألجمها بلجام التقوى والخوف من الله عز وجل، فإذا حرنت ووقفت عند القيام بالطاعات والموافقات ساقها بسياط الخوف وخلاف الهوى ومنع الحظوظ.

فصل فيما تتم به المجاهدة وخصال المراقبة:

ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة: وهي التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة ربه، وهذا هو أصل كل خير، وإنما يصل إلى هذه الرتبة بعد المحاسبة وإصلاح حاله في الوقت، ولزوم طريق الحق وإحسان مراعاة القلب بينه وبين الله تعالى، وحفظ الأنفاس مع الله عز وجل، فيعلم أن الله تعالى عليه رقيب، يعلم أحواله ويرى أفعاله، ويسمع أقواله.

ولا تتم أيضاً إلا بمعرفة خصال أربع:

١) أولها: معرفة الله تعالى.

٢) والثانية: معرفة عدو الله إبليس.

٣) والثالثة: معرفة نفسك الأمارة بالسوء.

٤) والرابعة: معرفة العمل لله تعالى.

ولو عاش إنسان دهراً في العبادة مجتهداً ولم يعرفها ولم يعمل عليها لم تنفعه عبادته، وكان على الجهل ومصيره إلى النار، إلا ان يتفضل الله عليه برحمته.

فصل في معرفة الله عز وجل:

فأما معرفة الله عز وجل: فهو أن يلزم العبد قلبه قربه عز وجل، وقيامه عليه وقدرته عليه وشهادته وعلمه به، وأنه رقيب حفيظ، وأنه واحد ماجد، لا شريك له في ملكه، وأنه عندما وعد صادقٌ، وعندما ضمن وافٍ، وعندما دعا إليه وندب إليه مليءٌ، وله وعد ينجزه، ووعيد صادق ينفذه، مقام تصير إليه الخلائق، ومصدر يتصرف من عنده، وله ثواب وعقاب، ليس له شبه ولا مثيل، وأنه كاف رحيم ودود سميع عليم، وأنه كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، يعلم الخفى وفوق الخفى، والضمير والخطرات والوسوسة والهمة والإرادة والوسواس والحركة والطرفة والغمزة والهمزة، وما فوق ذلك وما دون ذلك، مما دق فلا يعرف، وجل فلا يوصف، مما كان وما يكون، وأنه عزيز حكيم، وقد استوفينا ذلك في باب معرفة الصانع من قبل.

فإذا ألزم هذا قلبه في اليقين الراسخ والعمل النافع، ولزم ذلك كل عضو منه وكل جارحة وكل مفصل وعرق وعصب وشعر وبشر، وكذلك يتيقن أن الله تعالى قائم على ذلك عالم به، أحاط به علماً لا تعزب عنه عازبة، أنه خلقه فأحسن خلقه، وصوره فأحسن صورته، وثبت جميع ذلك في قلبه، وصح به عزمه وأكمل عقله، وثبت حينئذ فيه المحاسبة، ووصلت إليه المعرفة وقامت عليه الحجة، وكان في مقام من الله شريف، والحذر يصحبه في ذلك كله، فحفظت جوارحه وقلبه، ولا ينال شيئاً من هذه الجملة إلا أن يقطع الأشغال كلها، إلا ما دله على هذا، والفرق لا يفارق قلبه حذرا من سطواته، لقدرته

عليه لما قد سلف، وبما يكون منه، وحياء منه لقربه منه، ولم تسقط منه إرادة، ولم تزل منه همة ولا خطرة إلا له فيه علم.

فيكون العالم القائم بما يحب الله منه، والنازل له عما يكرهه منه، ولا تكون منه خطرة ولا لحظة ولا وسوسة ولا إرادة ولا حركة ظاهراً ولا باطناً، إلا وعلم الله عنده قائم في قلبه قبل الخطرات والحركات والوساوس وهو مقام العلماء بالله عز وجل، الخائفين العارفين الأتقياء الورعين.

فصل في معرفة عدو الله إبليس:

وأما معرفة عدو الله إبليس: فقد أمر الله تعالى بمحاربته ومجاهدته في السر والعلانية، في الطاعة والمعصية، وأعلم العباد بأنه قد عادى الله عز وجل وعبده ونبيه وصفيه وخليفته في الأرض آدم عليه السلام، وضاره في ذريته، وأنه لا ينام إذا نام الآدمي، ولا يغفل إذا غفل الآدمي، ولا يسهو إذا سها الآدمي، دائباً مجتهداً في عطب الآدمي وهلكته، في نومه ويقظته، وفي سره وعلانيته، في الطاعة ليبطلها وفي المعصية ليوقعه فيها، لا يألو به خديعةً وحليةً ومكراً، مصائده الشهية اللذيذة في طاعته ومعصيته.

ما يجهله كثير من خلق الله تعالى من العابدين المفرودين المخدوعين، وكثير من الغافلين، ليست راحته أن يوقع ابن آدم في معصية ولا رياء ولا إعجاب، إنما بغيته أن يرده معه حيث يرد جهنم، حيث قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

فإذا عرفه العبد بهذه الصفة فينبغي له أن يلزم معرفته في الحق والباطل، بلا غفلة ولا سهو منه، فيحاربه بأشدة المحاربة، ويجاهده بأشد المجاهدة، سراً وعلانية، ظاهراً وباطناً، لا يقصر في ذلك حتى يبذل مجهوده في محاربته، ومجاهدته في كل ما يدعو اليه من الخير والشر ولا يدع التضرع واللجأ إلى الله عز وجل والاستعانة به في حركاته كله ليعينه عليه، ويري الله عز وجل من نفسه الفقر والفاقة إليه، فإنه لا حيلة ولا قوة الا به، ويستغيث بالله عز وجل بالبكاء والتضرع، ويسأله النصر عليه جاهداً متذللاً، ليلاً ونهاراً، سرا

وعلانية، في الخلا والملا، حتى تصفر في عينه مجاهدته لمعرفته، بتوفيق الله تعالى إياه.

فإنه عدو مولاه، وهو أول من عصى الله من خلقه، وأول من مات من خلقه، يعني من عصاه، وكل عاص لله عز وجل ميت، كما جاء في الحديث، قال الله عز وجل: إن أول من مات من خلقي إبليس.

وهو الذي عاد أولياء الله من الأنبياء والصديقين وأصفياءه من خلقه أجمعين.

وينبغي للعبد أن يعلم أنه في جهاد عظيم، وفي قرب من الرب جل ثنائه، ولا يوصف شرف مقامه، فليثبت ولا يعجز.

فإنه إن عجز أو مل فقد عصى ربه عز وجل ووقع في جهنم، وغضب الله عليه ويكون قد أعطى عدو الله أمنيته منه، وقوي عليه لعنة الله وليس لإرادته في العبد غاية وانتهاء إلا بالكفر بالله.

فإنه إنما ينقله من حال إلى حال حتى يغضب الله عليه، فيكله إلى نفسه فيعطب ويقع في النار مع الشيطان، فلا خلق أشدَّ على العبد منه.

فالحذر الحذر، فإنه هو الورود على العطب، أو النجاة بفضل الله ورحمته، أعاذنا الله وجميع المسلمين من شرِّ إبليس وجنوده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل في معرفة النفس الأمارة بالسوء:

وأما معرفة النفس الأمارة بالسوء: فيضعها حيث وضعها الله عز وجل، ويصفها بما وصفها الله تعالى، ويقوم عليها بما أمر الله عز وجل فإنها أعدى له من إبليس، وإنما يقوى عليه إبليس بها وبقبولها منه.

فيعرف أي شيء طباعها، وما إرادتها، وإلام تدعو، وبم تأمر، وكيف خلقها خلقة ضعيفة قوى طمعها شرهة مدعية خارجة عن طاعة الله سبحانه، متملكة متمنية، خوفها أمن، ورجائها أماني، وصدقها كذب، ودعواها باطلة، وكل شيء منها غرور، وليس لها فعل محمود، ولا دعوى حق، فلا تغرنه بما يظهر له منها، ولا يرجو بما تأمل.

إن حل عنها قيودها شردت، وإن أطلق وثاقها جمحت، وإن أعطاها سؤلها هلكت، وإن غفل عن محاسبتها أدبرت، وإن عجز عن مخالفتها غرقت، وإن أتبع هواها تولت إلى النار وفيها هوت.

ليس له حقيقة ولا رجوع إلى خير، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة، وخزانة إبليس ومأوى كل سوء، ولا يعرفها أحد غير خالقها عز وجل، فهي في الصفة التي وصفها الله عز وجل، كلما أظهرت خوفاً فهو آمن، وكلما ادعت صدقاً فهو كذب، وكلما ذكرت إخلاصها فهو رياء وإعجاب.

عند الحقائق يبين صدقها ويعرف كذبها، وعند الامتحان ترجع إلى دعواها، فليس بلاء عظيم إلا وقد حلَّ بها.

فعلى العبد محاسبتها ومعرفتها ومراقبتها ومخافتها ومجاهدتها في جميع ما تدعو إليه فيه، فليس لها دعوى حق، وإنما تسعى في هلاكها ودمارها، ولا

توصف بشيء إلا وهي أكثر مما توصف، فهي كنز إبليس ومستراحه ومسامرته ومحدثته وصديقته.

فإذا عرف العبد صفتها فقد عرفها وهانت عليه، وذلت وقوى عليها بالله عز وجل، فإذا اجتمعت في العبد هذه الخصال الثلاثة، فليستعن بالله عز وجل عليهن، ولا يغفل لأنه إذا قوي على أدب نفسه ومخالفتها عما تهوى قوي على الخصال كلها إن شاء الله تعالى.

فعليه ببذل التقدم بالعزم بالله عز وجل وحده لا شريك له، ولا يميلنَّ، في هذا كله إلى أحد غير الله عز وجل، فإن لم يفعل ذلك فلا يوفق لخير ويكله الله عز وجل إلى نفسه.

فينبغي له أن يستعين بالله تعالى في هذا كله ويتبع مرضاته في جميع ما أمره الله به ونهاه، لا يريد بذلك أحدا غير الله عز وجل، فإن فعل ذلك أرشده الله ووفقه وأحبه وجنبه مكارهه وسترهم بستر الأصفياء العلماء بالله الذين بذلك نالوا العلم بالله عز وجلَّ.

فصل في معرفة العمل لله عز وجل:

وأما معرفة العمل لله عزَّ وجلَّ: فأن يعلم العبد أن الله عزَّ وجلَّ أمره بأمور ونهاه عن أمور، فالذي أمره به هو الطاعة، والذي نهاه عنه هو المعصية له عزَّ وجلَّ.

وأمره بالإخلاص فيهما والقصد إلى سبيل الهدى على نهج الكتاب والسنة، ولا يكون في ضميره في فعله كل شيء غير الله عزَّ وجلَّ، ولا يكن ممن ترك المعاصي الظاهرة وأعرض عن ترك المعاصي الباطنة التي هي أمهات الذنوب وأصولها، لأن الله تعالى ليس على هذا وعد بالمغفرة، ولا على هذا ضمن الثواب في دار الجزاء، فلا يجهدن العبد في العبادة بالظاهر بفساد النية وسقم الإرادة، فتعود إذ ذاك طاعته معاصي كلها، فتحل به عقوبات الدنيا والآخرة مع تعب البدن وقلة المراد به وترك الشهوة واللذة، فيخسر الدنيا والآخرة.

ولكن يزين طاعته بالإخلاص والتقوى والورع ونيته بالصدق ويحفظ إرادته بالمحاسبة، وليكن همه طلب النية الصادقة، وعزمه طلب الإخلاص والتوحيد في أقواله وأفعاله وأحواله أجمع عند أخذه في الطاعة، وإعراضها عن المعصية، حتى يثبت معرفة النية كما يثبت معرفة العمل.

وينبغي له أن يحترز من أن يخدعه إبليس اللعين بغوائله ويصرعه بمصائده ويوقعه في فخوخه، ويذهب به بمكره وخدعه، فإن له مصائد مسجلات في القلوب، وغوائل شهية وظرائف لذيذة، يحسبه الجاهل نوراً ويقينا، هو شك وظلمة، يفتح له مائة باب من الطاعة، يريد بذلك أن يدخله في أدنى منزلة يستغرق عمله بها، فإياه ثم إياه الحذر الحذر.

فإن قدر أن يتعلم خدعه كما يتعلم القرآن فليفعل، فبهذا أمره الله جلَّ ثناؤه، فليحذره العبد في طاعته كما يحذره في معاصيه.

فإن خطر بباله أمر أو دعته نفسه إلى شيءٍ أو تحرك بحركة فلا يعجلن دون المعرفة والعلم، وليرفق بنفسه ويترسل بترسل العلماء، ويجالس الفقهاء العالمين بالله وبأمره ونهيه، حتى يدلوه على طريق الله عزَّ وجلَّ ويعرفوه ذلك ويدلوه على دوائه ودائه على ما قدمناه في مجلس التوبة.

ولا ينبغي له أن يفتر بطول القيام وكثرة الصيام والنوافل الظاهرة بلا معرفة منه بعمله، فإنَّ كان كذلك ورأى فعله مع معرفته بنفسه وبربه وبعدوه صح فعله.

فعندما يورث العلم والفقه، فما كان من علم ظاهر أو باطن نظر إن كان لله خالصاً صادقاً قبله الله منه وأثابه عليه، وإن كان غير ذلك رده عليه فلم يسقط له عند ذلك فعل ولا يخفى عليه أمر.

فإذا كان كذلك فقد أعطى كل خلق حسن وصح عقله وثبت عمله وزاد حلمه، وكان من أولياء الله وأصفيائه الذين بالله ينظرون، وبالله يتكلمون، وبه يأخذون، وبه يعطون، ومع ذلك اتهم نفسه واتهم هواه على نفسه ودينه، واتهم إبليس، فحينئذ اتهم مع ذلك معرفته بنفسه على معرفته بها.

فصل في خصال أهل المجاهدة:

ولأهل المجاهدة والمحاسبة وأولى العزم عشر خصال جربوها لأنفسهم، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة :

أولها: ألا يحلف العبد بالله عز وجل صادقاً ولا كاذباً، عامداً ولا ساهياً: لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه دفعه ذلك أن يترك الحلف ساهياً وعامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله له باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه، وزيادة في بدنه، ورفعة في درجته، وقوة في عزمه وفي بصره، والثناء عند الإخوان وكرامة عند الجيران حتى يأتمر به من يعرفه ويهابه من يراه.

والثانية: أن يجتنب الكذب هازلاً وجاداً: لأنه اذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه، شرح الله به صدره وصفى به علمه، حتى كان لا يعرف الكذب، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواباً .

والثالثة: أن يحذر أن يعد أحداً شيئاً فيخلفه إياه وهو يقدر عليه إلا من عذرٍ بينٍ أو يقطع العدة البتة: فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه، لأن الخلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء، ودرجة الحياء، وأعطى مودة في الصادقين، ورفعة عند الله جل ثنائه .

والرابعة: يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها: لأنها من أخلاق الأبرار والصادقين، وله عاقبة حسنة في حفظ الله إياه في الدنيا، مع ما يدخر له عنده من الدرجات، ويستنقذه من مصارع الهلكة ويسلمه من الخلق، ويرزقه رحمة العباد والقرب منه عز وجل .

والخامسة: يجتنب أن يدعو على أحدٍ من الخلق وإن ظلمه: فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بفعاله، ويحتمل ذلك لله تبارك وتعالى، ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصال ترفع صاحبها في الدرجات العلا، إذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والأخرة، والحب والمودة في قلوب الخلق أجمعين، من قريب وبعيد، وإجابة الدعوة والعلو في الخير، والعز في الدنيا في قلوب المؤمنين .

والسابعة: يجتنب النظر والهمَّ إلى شيءٍ من المعاصي ظاهراً وباطناً ويكف عنها جوارحه: فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً للقلب والجوارح في عاجل الدنيا، مع ما يدخر الله تعالى له من خير الآخرة، نسأل الله تعالى أن يمن علينا أجمعين بالعمل بهذه الخصال، وأن يخرج شهواتنا من قلوبنا.

والثامنة: يجتنب أن يجعل على أحدٍ من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه: فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعون بمنزلة واحدة في الحق سواء، فإن كان كذلك نقله الله تعالى إلى الغنى واليقين والثقة به عز وجل، ولا يرفع أحدا بهواه، ويكون الناس عنده في الحق سواء، ويقطع بأن هذا الباب عز المؤمنين وشرف المتقين، وهو أقرب باب إلى الإخلاص .

والتاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه في شيءٍ مما في أيديهم: فإنه العز الأكبر، والغنى الخالص، والملك العظيم، والفخر الجليل، واليقين الصادق، والتوكل الشافي الصحيح، وهو باب من أبواب الثقة

بالله عز وجل، وهو باب من أبواب الزهد، وبه ينال الورع ويكمل نسكه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله تبارك وتعالى .

الخصلة العاشرة: التواضع لأن بها يشيد محل العابد وتعلو درجته ويستكمل العز والرفعة عند الله تعالى وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة: وهذه الخصلة أصل الطاعات كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في الضراء والسراء، وهي كمال التقوى والتواضع، هو ألا يلقى العبد أحدا من الناس إلا رأى له الفضل عليه، ويقول عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة، فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله وأنا قد عصيت، فلا أشك أنه خير مني، وإن كان كبيراً قال: هذا عبد الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أعطي مالم أبلغ ونال ما لم أنل، وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلم، وإن كان جاهلاً قال : هذا عصى الله بجهل، وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بم يختم له، وبما يختم لي، وإن كان كافراً قال: لا أدري عسى يسلم هذا فيختم له بخير العمل، و عسى أكفر أنا فيختم لي بشر العمل، وهذا باب الشفقة والوجل، وأول ما يصحب وآخر ما يبقى على العباد، فإن كان العبد كذلك سلمه الله من الغوائل، وبلغ به منازل النصيحة لله عز وجل، وكان من أصفياء الرحمن وأحبائه، وكان من أعداء إبليس عدو الله لعنه الله وهو باب الرحمة، ومع ذلك يكون قد قطع طريق الكبر وحبال العجب، ورفض درجة العلو وجانب درجة التعزز في نفسه في الدين والدنيا والآخرة، وهو ملح العبادة وغاية شرف الزاهدين وسيما الناسكين، فلا شيء أفضل منه، ومع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين، فلا يتم له عمل إلا به، ويخرج الغل والبغي والكبر من قلبه في جميع أحواله، وكان لسانه في السر والعلانية واحداً

ومشيئته في السر والعلانية واحداً وكلامه كذلك، والخلق عنده في النصيحة واحداً، ولا يكون من الناصحين وهو يذكر أحداً من خلق الله بسوء أو يعيره بفعل، أو يحب أن يذكر عنده بسوء، أو يرتاح قلبه إذا ذكر عنده بسوء، وهذا آفة العابدين وعطب النساك وهلاك الزاهدين، إلا من أعانه الله عز وجل على حفظ لسانه وقلبه برحمته .

الأساس الثاني: في التوكل

وأما التوكل :فالأصل فيه قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣]، وقوله تعالى :﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت الأمم بالموسم، فرأيت أمتي ملأت السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، لا يكتوون ولا يستطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللّٰهُمَّ اجعله منهم ، فقام آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة.

وحقيقة التوكل: تفويض الأمور إلى الله عز وجل، والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير، والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير، فيقطع العبد ألا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك، ويطمئن إلى وعد مولاه، فيأخذ من مولاه.

والتوكل ثلاث درجات: وهي التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

وقيل: التوكل بداية، والتسليم وسط، والتفويض نهاية .

وقيل: التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين .

وقيل: التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خاص الخاص.

وقيل: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم، والتفويض صفة نبينا صلوات الله عليهم أجمعين.

فالتوكل على كمال الحقيقة وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا، لأنه غابت نفسه حتى لم يبق لها أثر، فلم ير مع الله تعالى غير الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير، فالمتوكل على الله سبحانه وتعالى يكون لا يسأل ولا يريد ولا يرد ولا يحبس. وقال أيضا: التوكل هو الاسترسال .

وقال حمدون رحمه الله تعالى: هو الاعتصام بالله عز وجل .

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى: حقيقة التوكل إسقاط الخوف والرجاء مما سوى الله عز و جل.

وقيل: التوكل رد العيش إلي يوم واحد، وإسقاط هم غد.

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى: مراعاة التوكل ثلاث درجات :

١) الأولى منها: إذا أعطى شكر، و إذا منع صبر .

٢) والثانية: أن يكون العبد المنع والعطاء عنده واحد .

٣) والثالثة: المنع مع الشكر أحب اليه لعلمه باختيار الله تعالى له ذلك.

وروى عن جعفر الخلدي قال: قال إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى: كنت في طريق مكة، فرأيت شخصاً وحشيًّاً ، فجئت اليه فقلت: أجنيٌ أم إنسيٌ ، فقال: بل جني، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى مكة، فقلت له: بلا زاد و لا راحلة؟ قال: نعم، فينا أيضاً من يسافر على التوكل، فقلت له: ما التوكل؟ قال: الأخذ من الله.

وقال سهل رحمه الله تعالى: هو معرفة معطى أرزاق المخلوقين، ولا يصح لأحد التوكل حتى يكون عنده السماء كالصفر والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن له من رزقه بين هذين.

وقيل: هو ألا تعصي الله عز و جل من أجل رزقك.

وقال بعضهم: حسبك من التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله تعالى، ولا لرزقك خازناً غيره، و لا لعملك شاهداً غيره .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عن من دونه.

وقال النوري رحمه الله تعالى: هو أن تفني تدبيرك في تدبيره، و ترضى بالله وكيلاً ومدبراً و نصيراً. قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:٨١].

وقيل: هو السكون عن الحركات اعتماداً علي خالق الأرض والسموات .

وقيل لبهلول المجنون رحمه الله تعالى: متى يكون العبد متوكلاً؟ قال: إذا كان بالنفس غريباً بين الخلق، وبالقلب قريباً إلى الحق.

وقيل لحاتم الأصم رحمه الله تعالى: علام بنيت أمرك من التوكل؟ قال: على أربع خلال: علمت أن رزقي ليس يأكله غيري فلست أشتغل به، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأبادره، وعلمت أني بعين الله تعالى في كل حال فأنا مستح منه.

وعن أبي موسى الدبيلي قال: سألت عبد الرحمن ابن يحيى عن التوكل فقال لي: لو أدخلت يدك في فم التنين حتى تبلغ الى الرسغ لم تخف مع الله شيئاً، فقال أبو موسى رحمه الله تعالى: فخرجت الى أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى أساله عن التوكل فدخلت بسطام و دققت عليه الباب فقال لي: يا أبا موسى ما كان لك في جواب عبد الرحمن من القناعة حتي تجيء و تسألني؟ فقلت : يا سيدي افتح الباب؟ فقال: لو زرتني لفتحت لك الباب، خذ الجواب من الباب، فانصرفت، فلو أن الحية التي هي مطوقة بالعرش همت بك لم تخف مع الله شيئاً، قال أبو موسى رحمه الله تعالى: فانصرفت حتي جئت الى دبيل، فأقمت بها سنة، ثم اعتقدت الزيارة، فخرجت إلى أبي يزيد، فقال لي: الآن جئتني زائراً، مرحباً بالزائر، أدخل، فأقمت عنده شهر، لا يقع شيء إلا أخبرني به قبل أن أساله، فقلت له: يا أبا يزيد أخرج وأريد فائدة منك. فقال: اعلم أن فائدة المخلوقين ليست بفائدة، فانصرف، فجعلتها فائدة وانصرفت .

وعن أبي طاووس اليماني رحمه الله تعالى عن أبيه طاووس رحمه الله تعالى قال: إن أعرابياً جاء براحلة له فأبركها وعقلها، ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال:

اللّٰهُمَّ إن هذه الراحلة وما عليها في ضمانك، حتى أخرج اليها ومضى، فخرج الأعرابي من المسجد الحرام، وقد أخذت الراحلة وما عليها، فرفع رأسه الى السماء وقال: اللّٰهُمَّ ما سرق مني شيء، وما سرق الا منك، قال طاووس: بينما نحن كذلك مع الاعرابي إذ رأينا رجل نازلاً من رأس جبل أبي قبيس يقود الراحلة بيده اليسرى، ويمينه مقطوعة معلقة في عنقه، حتى جاء الى الأعرابي فقال: خذ راحلتك وما عليها، فسألته عن حاله، فقال: استقبلني فارس على فرس أشهب في رأس أبي قبيس، فقال لي: يا سارق مد يدك، قال: فمددتها فوضعها على حجر ثم أخذ آخر فبتلها وعلقها في عنقي، وقال: انزل، فرد الراحلة وما عليها الى الاعرابي .

و روي عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: لو توكلتم علي الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً و تروح بطاناً.

وروى محمد بن كعب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أسره أن يكون أقوي الناس فليتوكل على الله، ومن سره أن يكون أغني الناس فليكون مما بيد الله أوثق منه مما في يده.

وكان عمر رضي الله عنه يتمثل بهذين البيتين:

هـــون عليـــك فـــإن الأمـــور ... بـــــــأمر الإله مقاديرهـــــــا

فلـــيس بآتيـــك مصـــــروفها ... ولا عازب عنـــــك مقـــــدورها

وسئل يحي بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يكون الرجل متوكلاً، فقال: إذا رضى بالله وكيلاً.

وقال بشر رحمه الله تعالى: يقول أحدهم: توكلت على الله يكذب، والله فإنه لو توكل على الله رضى بما يفعل به.

وقال أبو تراب النخشبي رحمه الله تعالى: هو طرح البدن في العبودية و تعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإذا منع صبر.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: التوكل: ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول و القوة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى أيضا لرجل سأله عن التوكل فقال: هو خلع الأرباب، وقطع الأسباب، فقال له السائل: زدني فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية.

وقال أيضا: هو انقطاع المطامع.

وأما الحركة بالظاهر التي هي الكسب بالسنة فلا تنافي توكل القلب بعدما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى في قلبه، لأن محل التوكل القلب، وهو تحقيق الإيمان، فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان، فإن تعسر شيء من الأسباب فبتقدير الله عز و جل، وإن تيسر شيء منها فبتيسيره عز و جل، فتكون جوارحه وظواهره متحركة في السبب بأمر الله عز وجل ، وباطنه ساكن لوعد الله عز و جل.

وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله أدعها و أتوكل؟ فقال صلى الله عليه و سلم: اعقلها وتوكل.

وقيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه عز و جل.

وقيل: التوكل نفي الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك.

وقيل: التوكل الثقة بما في يد الله عز و جل، واليأس مما في أيدى الناس .

وقيل: التوكل إفراغ السر عن التفكر للتقاضي في طلب الرزق.

الأساس الثالث: حسن الخلق

وأما حسن الخلق: فالأصل فيه قول الله عز و جل لنبيه صلى اللّـه عليه وسلم في كتابه المنزل عليه :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وما روى عن أنس ابن مالك رضى اللـّهُ عنه أنه قال: قيل :يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً ؟فقال صلى اللّه عليه وسلم :أحسنهم خلقاً.

الخلق الحسن أفضل مناقب العبد و به تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه .

وقيل: إن الله عز و جل خص نبيه و رسوله محمداً صلى الله عليه و سلم بما خص به من المعجزات و الكرامات و الفضائل ، ثم لم يثن عليه بشيءٍ من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه، فقال عز من قائل :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وقيل: إنما وصفه اللّـه تعالى بالخلق العظيم لأنه جاد بالكونين، واكتفى بالله عز و جل.

وقيل: الخلق العظيم: أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى.

وقيل: معناه لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: هو ألا تكون له همة غير الله عز وجل .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: سمعت الحارث المحاسبي يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وقيل: الخلق الحسن استصغار ما منك، واستعظام ما لك .

وقيل: علامة حسن الخلق كف الأذى، واحتمال المؤن.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق.

وحسن الخلق مع الله عز و جل: أن تؤدي أوامره، و تترك نواهيه، وتطيعه في الأحوال كلها من غير اعتقاد استحقاق العوض عليه، وتسلم جميع المقدور اليه من غير تهمة، وتوحده من غير شرك، وتصدقه في وعده من غير شرك.

وقيل لذي النون المصري رحمه الله تعالى: مَنْ أكثر الناس هماً؟ قال: أسوأهم خلقاً.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر:٤]، أي خلقك فحسن.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠]، قيل: الظاهرة : تسوية الخلق، والباطنة :تصفية الخلق.

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم، مرتين، إحداهما: كنت قاعداً ذات يومٍ فجاء كلبٌ وبال علي، والثانية: كنت قاعداً فجاء إنسان وصفعني .

وقيل: كان أويس القرني رحمه الله تعالى إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فيقول: إن كان لابد فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي وتمنعوني عن الصلاة .

وقيل: شتم رجل الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى وكان يتبعه، فلما قرب من الحي وقف وقال: يا فتى إن كان بقي في قلبك شيء فقله كيلا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك.

وقيل لحاتم الأصم رحمه الله تعالى: يحتمل الرجل من كل أحد، قال: نعم، إلا من نفسه.

وروى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: دعا غلاماً له فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم، قال: ما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، قال: امض فأنت حر لوجه الله عز وجل.

وقيل: الخلق الحسن أن تكون من الناس قريباً وفيماً بينهم غريبا.

وقيل: الخلق الحسن قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق.

وقيل: مكتوب في الإنجيل: عبدي اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله تعالى: يا مرائي، فقال: يا هذه قد وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تعرف ثلاثاً إلا عند ثلاث: الحليم عند الغضب، والشجاع في الحرب، والأخ عند الحاجة إليه.

وقال موسى عليه السلام: يا إلهي أسألك ألا يقال لي ما ليس في، فأوحى الله تعالى إليه: ما فعلت ذلك لنفسي، فكيف أفعله لك؟

الأساس الرابع: الشكر

وأما الشكر: فالأصل فيه قوله عز وجل: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم:٧].

وما روى عن عطاء رحمه الله تعالى قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت ثم قالت: وأي شئ من شأنه لم يكن عجبا؟ إنه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت: في لحافي: حتى مس جلدي جلده، ثم قال: يا بنت أبي بكر ذريني أتعبد لربي، قالت: فقلت إني أحب قربك، ولكني أؤثر هواك، فأذنت له صلى الله عليه وسلم فقام إلى قربة من ماء، فتوضأ وأكثر صب الماء، ثم قام فصلى، فبكى حتى سالت دموعه صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل صلى الله عليه وسلم كذلك حتى جاء بلال رضي الله عنه فأخبره بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال صلى الله عليه وسلم: أفلا أكون عبدا شكورا؟ ولم لا أفعل، وقد أنزل الله عز وجل علي: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾] البقرة: ١٦٤ [.

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخصوص، وعلى هذا المعنى وصف الله تعالى نفسه بأنه الشكور توسعاً، معناه أنه يجازي العباد على الشكر، فسمى جزاء الشكر شكراً، كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾] الشورى: ٤٠[.

وقيل: حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه

بذكر إحسانه له، ثم إن إحسان العبد طاعته لله، وإحسان الحق سبحانه إنعامه على العبد، وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بإنعام الرب.

ثم الشكر ينقسم أقساماً إلى:

١) شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة.

٢) وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة.

٣) وشكر بالقلب وهو انعكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.

وقيل: شكر العينين أن تستر عيبا تراه لصاحبك، وشكر الأذنين أن تستر عيبا تسمعه فيه.

وفي الجملة الشكر ألا تعصي الله تعالى بنعمه.

ويقال:

- شكر هو شكر العالمين فيكون من جملة أقوالهم.
- وشكر هو شكر العابدين، فيكون نوعاً من أفعالهم.
- وشكر هو شكر العارفين، يكون باستقامتهم له عز وجل في عموم أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر له عز وجل بتوفيقه وإنعامه وعونه وحوله وقوته عز وجل، وانعزالهم عن جميع ذلك والفناء فيه، والاعتراف بالعجز والقصور والجهل، ثم الاستكانة إليه عز وجل في جميع الأحوال.

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله تعالى: شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وقيل: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيليا.

وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقيل: الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى.

وقيل: الشكر إضافة النعم إلى مولاها بنعت الاستكانة له.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الشكر ألا ترى نفسك أهلا للنعمة.

وقيل: الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشكور الذي يشكر على المفقود.

ويقال: الشاكر الذي يشكر على النفع، والشكور الذي يشكر على المنع.

ويقال: الشاكر الذي يشكر على العطاء، والشكور الذي يشكر على البلاء.

ويقال: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند المطل.

وقال الشبلي رحمه الله تعالى: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى: شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني قال الله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقال داود عليه السلام: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: الآن قد شكرتني.

وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر.

وقيل: لما بشر إدريس عليه السلام بالمغفرة سأل الحياة، فقيل له: لم ؟ فقال: لأشكره، فإني كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه وحمله إلى السماء.

وقيل: مر بعض الأنبياء عليه السلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير، فتعجب منه، فأنطقه الله له، فسأله عن ذلك، فقال: منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[مريم:٦]، فأنا أبكي من خوفه، فدعا ذلك النبي عليه السلام أن يجبر ذلك الحجر من النار، فأوحى الله عز وجل إليه، إني قد أجرته من النار، فمر ذلك النبي، فلما عاد وجد الماء يتفجر منه أوفر مما كان قبل ذلك، فعجب، فأنطق الله تعالى الحجر له، فقال له: لم تبكي وقد غفر الله لك؟ فقال: ذلك كان بكاء الحزن والخوف، وهذا بكاء الشكر والسرور.

وقيل: الشاكر مع المزيد، لأنه في شهود النعمة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[إبراهيم:٧]، والصابر مع الله لائذ به تعالى لأنه في شهود المبلي، قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾] البقرة:١٥٣ [.

وقيل: الحمد على الأنفاس، والشكر على نعم الحواس.

وقيل في الخبر الصحيح: أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله على ما صنع.

وحكى عن بعضهم أنه قال: رأيت في الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن، فسألته عن حاله، فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي، وهي كذلك كانت تهواني، فاتفق أن تزوجت بها، فليلة زفافها قلت لها: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله عز وجل على ما جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يفرغ أحدنا إلى الآخر، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فمنذ سبعين سنة أو ثمانين سنة ونحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كذلك يا فلانة؟ فقالت العجوز: هو كما قال الشيخ.

الأساس الخامس: الصبر

وأما الصبر: فالأصل فيه قول الله عز وجل:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠].

وقوله عز وجل:﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النمل: ١٢٧].

وما روى عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الصبر عند الصدمة الأولى.

وما روى أن رجلاً قال: يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه، إن الله تعالى اذا أحب عبدا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره.

وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله عز وجل لا يبلغها بعمله حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك.

وما جاء في الخبر: أنه لما نزل قوله تبارك وتعالى:﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣]، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: غفر الله لك يا أبا بكر أليس تمرض ؟ أليس يصيبك البلاء ؟ أليس تصبر ؟ أليس تحزن ؟ فهذا ما تجزون به.

يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك. فالصبر ثلاثة أضرب:

١) أحدها صبر لله عز وجل: وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

٢) وصبر مع الله عز وجل: وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

٣) وصبر على الله عز وجل: وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب في دار الآخرة.

وقيل: الصبر على قسمين: أحدهما: صبر على ما هو كسب للعبد، وصبر على ما ليس بكسب له:

فالصبر على الكسب: ينقسم على قسمين: أحدهما: على ما أمر الله به عز وجل. والثاني: على ما نهاه عز وجل عنه.

وأما الصبر على ما ليس بكسب للعبد: فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله وقضائه فيما له فيه مشقة وألم في القلب والجسد.

وقيل: الصابرون ثلاثة: متصبر، وصابر، وصبار.

وقيل: وقف رجل على الشبلي رحمه الله تعالى فقال له: أي الصبر أشد على الصابرين؟ قال: الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله، قال: لا، قال: الصبر مع الله، قال: لا، قال: فأيش؟ قال: الصبر على الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: السير من الدنيا إلى الآخرة سهم هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد، وسئل رحمه الله تعالى عن الصبر ؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبيس.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقيل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة.

وقيل: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقيل: الصبر هو المقام مع البلاء بحسن الصحة، كالمقام مع العافية.

وقيل: أحسن الجزاء على العبادة الجزاء على الصبر ولا جزاء فوقه، قال الله تعالى:﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل.٩٦]، وقال عز وجل:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر ١٠] .

وقيل: الصبر هو الثبات مع الله عز وجل، وتلقي أذية بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص رحمه الله تعالى: الصبر الثبات مع الله تعالى على أحكام الكتاب والسنة.

وقال يحي بن معاذ الرازي رحمه الله تعال: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجبا كيف يصبرون؟ وأنشد:

الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

وقيل: الصبر ترك الشكوى.

وقيل: هو الاستكانة والاستعاذة بالله عز وجل.

وقيل: الصبر كاسمه.

وقيل: الصبر هو ألا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة.

الأساس السادس: الرضا

وأما الرضا: فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾]المائدة.١١٩[.

وقوله تبارك وتعالى:﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٍ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٍ﴾]التوبة.٢١[الآية.

وروى عن ابن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله عز وجل ربا.

وقيل: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر.

وروى عن قتادة رحمه الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا﴾]النحل.٥٨[، هذا صنيع مشركي العرب، أخبرنا الله عز وجل بخبيث صنيعهم، فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وقضاء الله عز وجل خير من قضاء المرء لنفسه، وما قضاء الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب، فاتق الله تعالى وارض بقضائه، قال الله تبارك وتعالى:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾]البقرة.٢١٦[. يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، فالله عز وجل طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي، والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة، واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح، فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه، ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه.

واعلم أن تعب كل واحدٍ من الخلق على قدر منازعته المقدور للقدر، وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، فكل من رضي بالقضاء استراح، وكل من لم يرض به طالت شقاوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلا ما قسم له، فما دام هواه متبعاً قاضياً عليه فهو غير راض بالقضاء، لأن الهوى منازع للحق عز وجل، فتعبه متكاثف متزايد، فاستجلاب الراحة في مخالفة الهوى، لأن فيه الرضا بالقضاء بلا بد، واستجلاب التعب والنصب في موافقة الهوى، لأن فيه منازعة الحق عز وجل بلا بد، فلا كان الهوى، وإذا كان فلا كنا.

واختلف أهل العلم والطريقة في الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات؟

فقال أهل العراق: هو من جملة الأحوال، وليس هو كسباً للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال ثم تحول وتزول ويأتي غيرها.

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل يعني يؤول إلى غاية ما يتوصل إليه العبد باكتسابه.

والجمع بينهما ممكن بأن يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وهي ليست بمكتسبة، وفي الجملة الراضي هو الذي لا يعترض على تقدير الله عز وجل.

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: ليس الرضا ألا تحس بالبلاء، إنما الرضا ألا تعترض على الحكم والقضاء.

وقد قالت المشائخ رحمهم الله تعالى: الرضا بالقضاء باب الله الأعظم وجنة الدنيا: أي من أكرم بالرضا فقد لقي بالرحب الأوفى، وأقرب بالقرب الأعلى.

وقيل إن تلميذا قال لأستاذه: هل يعرف العبد أن الله تبارك وتعالى راض عنه؟ قال: لا، كيف يعلم ذلك، ورضاه غيب، فقال التلميذ: يعلم ذلك. فقال: كيف؟ قال: إذا وجدت قلبي راضياً عن الله تعالى علمت أنه راض عني، فقال الأستاذ: لقد أحسنت يا غلام، ولا يرضى العبد عن الله حتى يرضى الحق جل جلاله عنه، قال الله عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة.١١٩]، أي برضاه عنهم رضوا عنه.

وقيل: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال: إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى عليه السلام ساجداً متضرعاً، فأوحى الله عز وجل إليه يا ابن عمران إن رضائي في رضاك بقضائي.

وقيل: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله عز وجل رضاه فيه. وقيل: الرضا على قسمين: رضا به، ورضا عنه، فالرضا به مدبر، والرضا عنه فيما يقتضي حاكما وفاصلا.

وقيل: الراضي أن لو جعلت جهنم عن يمينه ما سأل أن يحولها إلى يساره.

وقيل: الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يبقى إلا فرح وسرور.

وسئلت رابعة العدوية رحمها الله تعالى: متى يكون العبد راضيا بالقضاء؟ فقالت رحمها الله تعالى: إذا سر بالمصيبة كما يسر بالنعمة.

وقيل: قال الشبلي رحمه الله تعالى بين يدي الجنيد رحمه الله تعالى: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد رحمه الله: قولك ذا لضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء.

وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى: الرضا ألا تسأل الجنة من الله ولا تستعيذ به من النار.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: ثلاثة من علامات الرضا:

١) ترك الاختيار قبل القضاء.
٢) وفقدان المرارة بعد القضاء.
٣) وهيجان الحب في حشو البلاء.

وقال أيضا رحمه الله تعالى: هو سرور القلب بمر القضاء.

وسئل أبو عثمان رحمه الله تعالى: عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، قال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وروي أنه قيل للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي رحمهما الله تعالى: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

والذي قال الفضيل هو الصحيح، لأن فيه الرضا بالحال، وكل خير في الرضا بالحال.

قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٤٤]، أي ارض بما أعطيتك، ولا تطلب منزلة غيره، وكن من الشاكرين: يعني بحفظ الحال، وكذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾]طه: ١٣١[، فأدب نبيه عليه الصلاة والسلام وأمره بحفظ الحال والرضا بالقضاء والعطاء بقوله تعالى:﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾]طه.١٣١[، أي ما أعطيتك من النبوة والعلم والقناعة والصبر وولاية الدين والقدوة فيه أولى مما أعطيت غيرك وأحرى، فالخير كله في حفظ الحال والرضا به، وترك الالتفات إلى ما سواه، لأنه لا يخلو إما أن يكون ذلك قسمك أو قسم غيرك، أو أنه لا قسم لأحد، بل أوجده الله تعالى فتنة.

فإن كان قسمك: فهو واصل إليك شئت أم أبيت، فلا ينبغي أن يظهر منك سوء الأدب والشره في طلبه، فإن ذلك غير محمود في قضية العقل والعلم.

وإن كان قسم غيرك: فلا تتعب فيما لا تناله ولا يصل إليك أبدا.

وإن كان ليس بقسم لأحد: بل هو فتنة، فكيف يرضى العاقل ويستحسن اللبيب أن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها.

وقال قوم: الرضا بالقضاء هو أن يستوى عندك ما تحب وما تكره من قضائه عز وجل .

وقال بعضهم: هو الصبر على مر القضاء.

وقال آخر: هو طرح الكف بين يدي الله عز وجل والتسليم لأحكامه.

وقال آخر: هو إسقاط التخيير على المدبر. وقال آخر: هو ترك الاختيار.

وقال بعضهم: أهل الرضا هم الذين قطعوا عن قلوبهم في الأصل الاختيار، فهم لا يختارون شيئا من الأشياء مما تريد أنفسهم، ولا شيئاً مما يريدون به الله، ولا يسألونه ولا يطالعون حكما قبل نزوله، فإن وقع حكم من الله حيث لا يتشوقون إليه ولم يطالعوه، رضوا به فأحبوه وسروا به.

وقال: إن لله عبادا إذا وقع بهم الحكم من البلوى رأوه نعمة من الله عليهم، فشكروه عليها وسروا بها، ثم رأوا بعد سرورهم بالنعم أن اشتغالهم بالنعمة عن المنعم نقص، فاشتغلت قلوبهم بالمنعم عن النعم فكان البلاء جاريا عليهم وقلوبهم غائبة عنه، فلما استوطنوا هذا المقام وداوموا عليه نقلهم مولاهم إلى ما هو أعلى لهم وأسمى من ذلك، لأن مواهبه عز وجل لا غاية لها ولا نهاية. وأقل ما في الرضا بالقضاء أن ينقطع طمعه عما سوى الله عز وجل، وقد ذم الله عز وجل الطمع في غيره عز وجل، فروى عن يحي بن كثير أنه قال: قرأت التوراة فرأيت فيها أن الله سبحانه وتعالى يقول: ملعون من كان ثقته بمخلوق مثله.

وروى في بعض الأخبار أن الله سبحانه يقول: وعزتي وجلالي وجودي ومجدي لأقطعن أمل كل مؤمل آمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة بين الناس، ولأبعدنه من قربي، ولأقطعنه من وصلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي، ويرجى غيري ويطرق بالفكر أبواب غيري وهي مغلقة ومفاتيحها بيدي.

وروى في خبر آخر أن الله عز وجل يقول: ما من عبد يعتصم بي دون خلقي، أعلم ذلك من قلبه ونيته، فتكيده السموات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له من ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني، إلا قطعت أسباب السماء من فوقه، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم أهلكه في الدنيا وأتعبه فيها.

وروى عن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من تعزز بالناس ذل.

وقيل: من اتكل على مخلوق مثله ذل، فكفاه الطمع بما يناله من اطلاع قلبه، وتشتت همه وذله ومسكنته، فقد اجتمع عليه أمران: ذل في الدنيا، وبعد من الله عز وجل بلا ازدياد في رزقه ذرة واحدة.

وقال بعضهم: لا أعرف شيئا أضر على المريدين والطالبين من الطمع، ولا أخرب لقلوبهم ولا أذل لهم ولا أظلم لقلوبهم ولا أبعد لهم ولا أشد تشتيتا لهمهم من الطمع، إنما كان ذلك كذلك لأنه أشرك بالله عز وجل حيث طمع في مخلوق مثله لا يملك ضرا ولا نفعا ولا عطاءا ولا منعا، فجعل ملك الملك لمملوكه ، فأنى يكون له ورع، فلا يتحقق ورعه حتى ينسب الأشياء إلى مالكها عز وجل، فيطلبها منه ولا يطلبها من غيره.

وقيل: الطمع له أصل وفرع، فأصله الغفلة وفرعه الرياء والسمعة والتزين والتصنع وحب إقامة الجاه عند الناس.

وقال عيسى عليه السلام للحواريين: الطمع القتول الموجي.

وعن بعضهم أنه قال: طمعت يوما مرة في شئ من أمر الدنيا، فهتف بي هاتف وهو يقول: يا هذا إنه لا يحمد بالحر المريد اذا كان يجد عند الله كل ما يريد أن يركن بقلبه إلى العبيد.

واعلم أن لله عبادا يخفى عليهم الطمع فيمن يملك لهم ما فيه يطمعون حتى تكون الأشياء داخلة عليهم من حيث لا يطمعون، ويرون أن حالة الطمع نقص في الأحوال، وهو أدنى درجة من درجات العارفين من أهل التوكل، ولا يخطر على قلب مريد شئ من الطمع ويساكنه، إلا لأجل كمال البعد من الله عز وجل، حيث طمع في مخلوق مثله، وهو يرى أن مولاه مطلع عليه، ثم لم يحجزه الخوف من ذلك.

الأساس السابع: الصدق

وأما الصدق: فالأصل فيه قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وما روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لاَ يَزَالُ العَبْدُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّـهِ صِدِّيقاً، وَلاَ يَزَالُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّـهِ كَذَّاباً[1] .

وقيل إن الله أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته.

واعلم أنَّ الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة، وهو قوله عز وجل:﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الآية [النساء:٦٩].

والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصديق هو المبالغة منه، وهو من تكرر منه الصدق فصار دأبه وسجيته، وصار الصدق غالبه، فالصدق استواء السر والعلانية، فالصادق هو الذي صدق في أقواله، والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله.

وقيل: من أراد أن يكون الله معه فليلزم الصدق، فإن الله مع الصادقين.

---

١) يحتاج تخريج

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الصادق ينقلب في اليوم أربعين مرة، والمرئي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وقيل: الصدق هو القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: الصدق موافقة السر بالنطق .وقيل: الصدق منع الحرام من الشدق.

وقيل: الصدق الوفاء لله بالعمل.

وقال سهل بن عبد الله: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال أبو سعيد القرشي رحمه الله تعالى: الصادق الذي يتهيأ أن يموت ولا يستحيي من سره لو كشف.

قال الله تعالى:﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة:٩٤].

وقيل: الصدق صحة التوحيد مع القصد.

وقيل: حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاثة لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والهيبة، والملاحة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: الصدق سيف الله في أرضه ما وضع على شئ إلا قطعه.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: أول جناية الصديقين حديثهم مع أنفسهم.

وسئل فتح الموصلي رحمه الله تعالى عن الصدق: فأدخل يده في كانون الحداد وأخرج الحديد وهي تشتعل نار ووضعها على كفه حتى بردت وقال: هذا هو الصدق.

وسئل الحارث المحاسبي عن علامة الصدق فقال: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج من كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله، فإن كراهته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين.

وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت، قيل : ما الفرض الدائم؟ قال: الصدق.

وقيل: اذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تنظر فيها كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة.

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة وتعريف بالكتاب..... ٤
مقدمة المؤلف..... ٢٦
الباب الأول في التصوف والسوك..... ٢٨
فصل في الإرادة والمريد والمراد..... ٢٩
فصل ما المتصوف والصوفي..... ٣٣
الفرق بين المتصوف والصوفي..... ٣٤
الفرق بين النبوة والولاية..... ٣٩
الباب الثاني في آداب الطريقة وواجباتها..... ٤٠
فصل فيما يجب على المبتدىء في هذه الطريقة أولاً..... ٤١
فصل في آداب المريد مع الشيخ..... ٤٤
فصل آخر في آداب المريد مع الشيخ..... ٥١
فصل في الذي يجب على الشيخ في تأديب المريد..... ٥٢
الباب الثالث في آداب الصحبة..... ٥٥
فصل في الصحبة مع الإخوان..... ٥٦
فصل في الصحبة مع الأجانب..... ٥٧
فصل في الصحبة مع الأغنياء..... ٥٨
فصل في الصحبة مع الفقراء..... ٦٠
فصل في آداب الصحبة مع الفقراء..... ٦١
الباب الرابع في آداب الفقراء (المريدين)..... ٦٤
فصل في آداب الفقير في فقره..... ٦٥
فصل في آداب الفقير في سؤاله..... ٦٩
فصل في آداب العشرة..... ٧١

فصل في آداب الفقراء عند الأكل..... ٧٤
فصل في أداب الفقراء فيما بينهم..... ٧٦
فصل في آداب الفقراء مع الاهل و الولد..... ٧٩
فصل في آداب الفقراء مع في السفر..... ٨٢
فصل في آداب الفقراء في السماع..... ٨٥
الباب الخامس في أسس الطريقة..... ٩٠
الأساس الأول: المجاهدة..... ٩١
١) فصل في الأصل في المجاهدة:..... ٩٦
٢) فصل فيما تتم به المجاهدة وخصال المراقبة:..... ٩٧
٣) فصل في معرفة الله عز وجل:..... ٩٨
٤) فصل في معرفة عدو الله إبليس:..... ١٠٠
٥) فصل في معرفة النفس الأمارة بالسوء:..... ١٠٢
٦) فصل في معرفة العمل لله عز وجل:..... ١٠٤
٧) فصل في خصال أهل المجاهدة:..... ١٠٦
الأساس الثاني: في التوكل..... ١١٠
الأساس الثالث: حسن الخلق..... ١١٧
الأساس الرابع: الشكر..... ١٢١
الأساس الخامس: الصبر..... ١٢٦
الأساس السادس: الرضا..... ١٣٠
الأساس السابع: الصدق..... ١٣٨
فهرس محتويات الكتاب..... ١٤١